مواطن الشعوب الإسلامية في آسيا

- ٣ -

قفقاسيا



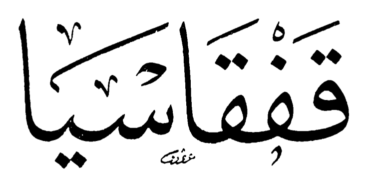
محمود شاكر

المكتب الإسلامي

١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م

مؤسسة الرسالة - بيروت . ص.ب ٤٤٧٩

محمود شاكر



مؤسسة الرسالة

بيروت - لبنان



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

خرج محمد صلى الله عليه وسلم من مكة مهاجراً إلى يثرب، وقد خاطب مكة قائلا : « إنك لأحب أرض الله إليّ ولولا أن أهلك أخرجوني ما خرجت » . وخرج صحابته رضوان الله عليهم ، فارين بدينهم ، تاركين الأهل والولد ، والمال والمتاع ، وبقيت ذكريات لأهل مكة – موطنهم الأصلي – ماثلة لهم ، تهفو إليها نفوسهم ، وتشتاق لربوعها أفئدتهم ، ووصلوا يثرب ، وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم وبين الأنصار ، فعاشوا حياة واحدة تظللها السعادة الحقة ، ويخيم عليها الرخاء الصحيح . وشغل المهاجرون – بما هم عليه من حياة فاضلة هادئة قوامها – لا يؤمن أحدهم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه – شغلوا بها عن ذكريات موطنهم الأول في مكة ، وعاشوا حياتهم متناسين كل شيء سوى

رسولهم الكريم ، والعقيدة التي تربط بين قلوبهم ، وتدفعهم لنشر دعوتهم .

وكان كل مهاجر لله إذا التقى باخوة له في العقيدة ، وشعر أنهم شاطروه الرأي ، وعاملوه بالحسنى ، اعتبر موطنه الجديد هو الأول والأخير ، وعاهد على حمايته وتقديره وبذل نفسه وماله في سبيل إعلاء كلمة الله فيه . وإذا شعر غير ذلك من تفرقةٍ وكرهٍ وتمييز ، عادت ذكريات موطنه الأول ماثلة أمام عينيه وعاوده الحنين إلى نسماته ومفاتنه وجداوله ومرتفعاته وتداعت إلى أفكاره ذكريات أرضه الأولى التي لا مثيل لها ، وثمارها التي لا شبه لها ، وتاق إلى العودة مهما كانت الظروف والأسباب رغم ما ينتظره من بلاء يحيق به ، وغم يترقبه من تقبل أفكار ومعتقدات الذين أجلوه عن أرضه وحكموا بلاده رغم أنفه ، واضطهدوا أهله في دينهم وأعراضهم وعاداتهم وأوضاعهم .

ويعيش في بلادنا اليوم جماعة من القفقاس ، هاجروا إلينا بدينهم بعد أن احتلت بلادهم حكومة روسيا القيصرية وسامتهم سوء العذاب، وقد اعتمدوا في هجرتهم إلينا مفضلين بلادنا على غيرها ونحن على سوانا بسبب العقيدة التي تجمعنا واياهم على مستوى واحد فنكون كأسنان المشط « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ورسول الله يقول :

« يا أيها الناس كلكم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربي على أعجمي ولا أبيض على أسود إلا بالتقوى » .

رحل هؤلاء المهاجرون إلى البلاد يحملون بين جوانحهم كل فكرة حسنة عنا ويظنون أن استقبالهم سيكون استقبال المهاجرين لله ، وأن الإسلام هو الذي تطبق أحكامه على أرضنا فخاب ظنهم ، ولم تنقض فترة حتى بدأت نفوسهم تشتاق إلى مواطنهم الأول وربوعهم الأصلية وبالنهاية بدأت تنتشر بينهم أفكار الإلحاد التي يدين بها حكام أرضهم الذين أخرجوهم وأذلوهم ، ولو كانت نظرتنا إليهم حسنة لبقوا على ما هاجروا عليه .



- ١ -

طبيعة بلاد القفقاس

عرف العرب المسلمون بلاد القفقاس منذ عهد الخلفــاء الراشدين ، وقد أطلقوا على جبالها اسم (القبق)[١] كما كانت تعرف باسم القج ، والقبجق، والقفجاق ، وبلاد القفقاس تنحصر بين نهري ترك و كوبان شمالاً ونهري كورا وريفون جنوباً ، أي تشمل فقط جبال القوقاز وسفوحها الشماليــة والجنوبية ، وإن أصبح هذا الاسم يطلق اليوم على مناطق أوسع بكثير شمالاً وجنوباً . وجبالها عظيمة الامتداد، كثيرة الارتفاع ، صعبة الاجتيــاز ، قليلة الممرات ، تمتد على طول ١٢٠٠ كم لتصل بين البحرين الأسود والخزر[٢] (والخزر بلغة

(١) أي جبال القوقاز .

(٢) يطلق عليه اليوم اسم بحر قزوين ، كما كان يطلق عليه قديمــاً بحر طبرستان .

الجراكسة هو المنفرد) . وتعتبر أعلى جبـــال أوربا فيصل ارتفاعها إلى ٥٦٣٠ في قمة البروز ، وتتشكل فيها الثلاجات الدائمة كثلاجة ماروخ وهي بارتفاعها الشاهق وامتدادهـا الواسع تسد ما بين البحرين تماماً وتعتبر الحد الفاصل بين أوربا وآسيا ، والممر الوحيد في وسطها هو ممر دريال الذي يجري فيه أحد روافد نهر ترك العليا كما أن منطقتين يمكن اجتيازهما من خلالها وهما على سيف البحر من الشرق والغرب، وبواسطة هذه الممرات تسيطر هذه البقعة على التجارة بين أوربا وآسيا.

ان جميع الشعوب التي دخلت أوربا عن طريق قفقاسيا ، واجتازت إحدى هذه الممرات قد استقر بعضها بقصد الغلبة على المنطقة ، وتمترس فيها جماعات رغبة في التجارة ، وتحصن آخرون ، والتجأت أقوام فراراً من جيرانها أو غزاتها ، وكان أن ضمت مزيجاً من الشعوب انصهرت فيما بينهـا وعرفت بالقفقاسيين إلا أنها ترجع إلى أصول مختلفة وشعوب متباينة ، والجماعات الحربية التي التجأت إليها وتحصنت بهـا وانعزلت عن غيرها احتفظت بلغتها ، وحافظت على جنسها ، فنشأت مجموعات عديدة وقبائل كثيرة لكلٍ لغتها ، وعرفت كلهـا بالشجاعة والإقدام والقوة وشدة البأس وتعشق الحرية والصبر على الضيم .

وجرّ موطن هذه الشعوب عليها صعاباً كثيرة ، فطمعت فيها كل الدول المجاورة التي تريد السيطرة ، وحاولت احتلالها

كل الحكومات العسكرية الناشئة ، فغزاهـا الآشوريون والكلدانيون والمصريون القدماء ، وخضعت لنفوذ بيزانطة في القرن الثالث الميلادي بعد أن انتشرت المسيحية في جنوبها في القرن الأول الميلادي وكذا في بلاد الاباطه[1] (الإنجاز) ثم استولت على جنوبها الصين في القرن الرابع الميلادي ، وكانت دولتا الفرس والرومان كفرسي رهان على امتلاك أرمينيـا وجنوب القفقاس. وإضافة إلى الغزاة فقد قامت فيها حكومات محلية ، فأقام القوشحة في وسط المرتفعات حكومة عرفت في كتب الفتوح العربية باسم حكومة اللان . وأسس الداغستان دولة في السفوح الشرقية للجبال أسماها الفاتحون المسلمون حكومة السرير .

سير الفتوحات الاسلامية

وفي القرن السابع الميلادي (٦٤٤ م) والأول الهجري (٢٢ هـ) وصل المسلمون إلى بلاد القفقاس وذلك في عهد عمر ابن الخطاب رضي الله تعالى عنه ، فبعد أن استولى سراقه بن عمرو على اذربيجان تابع فتوحاته لنشر الاسلام ، وكان على

---

(١) سكان السفوح الغربية لجبال القوقاز على ساحل البحر الأسود وهم منعزلون بين البحر والجبال .

مقدمة جيشه الذي سار نحو الباب[١] عبد الرحمن بن ربيعة ، فلما وصلها حاصرها وأطال ، فكتب إليه ملكها شهربزار ، مستأمناً ، فجـاء الملك وقال له : « إني بإزاء عدو كلب ، وأمم مختلفة لا ينسبون إلى أحساب ، ولا ينبغي لذي الحسب والعقل ، أن يعين أمثال هؤلاء ولا يستعين بهم على ذوي الأحساب والأصول ، وذو الحسب قريب من ذي الحسب حيث كان ، ولست من القبج في شيء ولا من الأرمن ، وانكم قد غلبتم على بلادي وأمتي ، فأنا اليوم معكم ، ويدي بأيديكم ، وصفوي معكم ، وبارك الله لنا ولكم ، وجزيتنا إليكم ، والنصر لكم ، والقيام بما تحبون ، فلا تذلونا بالجزية فتوهنونا لعدوكم » . فقال له عبد الرحمن فوقي رجل قد أظلك فسر إليـــه ، فجوزه[٢] ، فسار إلى سراقة فلقيه بمثل ما كلم به عبدالرحمن ، فقال سراقة : « قد قبلت ذلك فيمن كان معك هذا ما دام عليه ، ولا بد من الجزاء ممن يقيم ولا ينهض ، فقبل ذلك » . وكتب سراقة بذلك إلى عمر بن الخطـاب رضي الله عنه ، فأجازه وحسنه وكان في كتاب صلحهم الأمـــان لأنفسهم وأموالهم ، وأن ينفروا لكل غارة وينفذوا لكل أمر أناب

---

(١) الباب : هي مدينة باب الأبواب وهي ثغر على بحر الخزر ويطلق عليها اليوم دربنت .

(٢) سمح له بالمرور واجتياز الأرض التي تحت اشرافه .

أو لم ينب ورآه الوالي صلاحاً ، على أن يوضع الجزاء عمن أجاب إلى ذلك ومن استغنى عنه منهم وقعد فعليه مثل ما على أهل أذربيجان من الجزاء والدلالة والنزل يوماً كاملاً . فإن حشروا ، وضع ذلك عنهم ، وإن تركوا أخذوا به ، وهذهسنة في عهد الخليفة عمر بنالخطاب رضي الله عنه فليست الاستعانة بالمخالفين في الدين من أهل الشرك ، ووضع جزية الحماية عنهم بدعة جديدة .

ودخل في الاسلام جميع بلاد شروان وجزء منالداغستان ويعتبر القوموق[1] في بلاد الدغستان أوّل من قبل الاسلام وبذلوا الكثير في سبيل نشره ، وقد تأسست في بلادهم امارة طارقي الشامية . وكان مركز الامارة مدينة طارقي التي يطلق عليها اليوم اسم بتروفسك . وهكذا فالمدنيات الحديثة تريد أن تزيل كل أثر للمدنيات السابقة وتغير معالمها وتوجه اهتمامها وخاصة على الخضارة الاسلامية ، ثم تدعي الحديثة منها أنها الوحيدة في الحضارة ثم تقلل من قيمة المدنية الاسلامية .

ثم وجّه سراقة بنعمرو فصائل إلىالجبال المحيطة بأرمينية موقان وتفليس وجبال اللان ، فاستولت على بلاد الأرمن

---

(١) القوموق : قبائل في بلاد الداغستان عند مصب نهر ترك وتختلف عنهم بالجنس .

والكرج ودخلوا مدينة تفليس وأسسوا حكومة عربية هناك، ودعوا الناس إلى الاسلام ، وكان من أول من دان بالاسلام الكرج ثم الداغستان ، ثم امتد الاسلام إلى غرب قبرطاي ثم إلى كوبا ، وكان امراء الأرمن قد دخلوا في الاسلام وتبعهم الشعب ، ولكنهم ارتدوا عندما ضعفت الحكومة الاسلامية هناك ، فالإسلام عندما يحكم يدخل الناس في دين الله أفواجاً فيطبقون أحكامه ويعملون بتشريعه ، وعندما يبعد عن الحكم يترك كثير من الناس عباداتهم وينحرفون بأخلاقهم ، فإذا انقضت فترة من الزمن على إبعاد الاسلام عن الحكم ، ادعى بعضهم أنه لم يعد بالإمكان الرجوع إليه والأخذ بتعاليمه ، « إن الله ليزع بالسلطان مـــا لا يزع بالقرآن » فبمجرد أن تعلن الأحكام الشرعية يطيع الناس في البداية طوعاً أو كرهاً ، ثم يؤمنوا بصلاحيته وحده دون سواه ، لذا يجب الاهتمام لناحية الحكم والسلطان رغبة في تطبيق الاسلام لأن الحكام اليوم والطواغيت يحولون دون نشره وتطبيق تعاليمه بين الشعب لايجـــاد القواعد الصلبة .

وفي عام ٣٢ هـ توغل عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي في بلاد الخزر حتى وصل إلى مدينة بلنجر وهي أكبر مدنهم خلف باب الأبواب ، فانهزم المسلمون ، وأصيب عبد الرحمن ، وقد جاءت امداد المسلمين بإمرة سليمان بن ربيعة الباهلي (أخي عبد الرحمن) وقد أصبح والياً على تلك المنطقة بعد أخيه .

وقـــد سيَّر معاوية بن أبي سفيان ـ أمير الشام ـ بأمر الخليفـة عثمان بن عفان رضي الله عنه حبيب بن مسلمة حيث استمر حبيب في فتوحه حتى وصل مدينة تفليس .

ثم توقفت الفتوح وتقلص انتشار الاسلام بسبب الخلافات الداخليـة التي وقعت في بلاد المسلمين ، ولم يحدث إلا بعض الغزوات البسيطة عندما ترتد بعض القبائل عن الاسلام أو تخلع الطـاعة ، أو يمتنع بعض المعاهدين عن دفع الجزية وينقضون ما عاهدوا عليه ، ولم تسير الجيوش أثناء الفتوحات الكبر أيام الوليد بن عبد الملك حيث دخل جيش المسلمين بلاد الخزر عن طريق أرمينية بإمرة ثبيت النهراني فاجتمعت عليه الخزر وساعدهم عليه القفجاق والترك ، فانهزم المسلمون شر هزيمة وفيهم ثبيت فوبخه يزيد فأجابه ثبيت : « والله يا أمير المؤمنين مـا جبنت ولا نكلت عن ملاقات ، ولقد لصقت الخيل بالخيل ، والرجل بالرجل ، ولقد طاعنت حتى انقضت رمحي ، وضاربت حتى انقطع سيفي غير أن الله تبارك وتعالى يفعل ما يريد » فعزله يزيد وولى بدلاً منه الجراح بن عبد الله الحكمي ، وأمده بجيش كثيف ، وأمره بغزو بلاد الخزر ، ولكن الخزر طمعوا بالمسلمين عندما هزموهم ،فحشدوا الحشود ، ولكن الجراح استطاع أن يهزمهم ويدخل مدينة باب الأبواب بغير قتال وصالح الترك على مالٍ يؤدونه ، وكان الجراح من

أعظم الولاة أثراً وفتحاً في تلك البلاد القاصية ، ودخل الناس في الاسلام بأعداد كبيرة .

وفي عام ١٠٧ ﻫ أيام هشام بن عبد الملك عزل عن ارمينية الجراح بن عبد الله وولى مكانه مسلمة بن عبد الملك ، فأرسل مسلمة الحارث بن عمر الطائي ففتح رستاق ، كما انتصر مسلمة على الترك في عام ١١٠ ﻫ عندما سار إليهم من باب اللان ، ثم في عام ١١١ﻫ أعاد هشام الجراح بن عبد الله إلى ولاية ارمينية فدخل بلاد الخزر من ناحية تفليس ولكنه قتل أثناء عودته ، وانهزم المسلمون ، وولى مكانه سعيد الحرشي ، فقام بعدة فتوحات ثم أعاد هشام أخاه مسلمة إلى ولاية ارمينية واذربيجان ، وفي عام ١١٤ ﻫ ولى هشام مروان بن محمد[١] على هذه الولاية فانتصر على الخزر وصالحهم ودانت له جميع البلاد .

وهكذا فلم تنته الدولة الاموية إلا وقد استقر الحكم للاسلام في قفقاسيا بعد أن انتفض سكانها مرات ومرات يساعدهم في ذلك أوضاع المسلمين وخلافاتهم . وطبيعة البلاد الجبلية ووعورتها ، وعدم رسوخ الايمان الصحيح في نفوسهم حتى تلك الفترة ، إذ كانوا حديثي الاسلام .

---

(١) الذي أصبح فيما بعد خليفة وهو آخر خلفاء بني امية .



مصور
بلاد القفقاس
طبيعياً
نهر الدون
نهر الفولغا
بحر آزوف
نهر كوبان
نهر كوما
جبال القفقاس
قمة البروز
٥٦٣٠
ريغون
البحر الأسود
تركيا
نهر اراكس
سورية
العراق
ايران

- ٢ -

الغزو المغولي

وبقي الحكم العربي الاسلامي في قفقاسيا مدة عصر القوة في الدولة العباسية ولكنه بدأ يضعف بضعفها ، حتى حلت الفوضى وضعفت الحكومة ، فانقسمت معها قفقاسيا إلى قسمين شمل الأول بلاد الكرج (كرجستان) [١] وضم الآخر بلاد الانجاز .

وعندما اشتدت الحروب الصليبية واتجه العرب المسلمون لمحاربة الصليبيين ، استغل الكرج هذه الحروب ، وانشغال المسلمين في مقارعة الخصوم ، فأعلنوا الاستقلال ، ودخلوا مدينة تفليس وذلك عام ١٠٢٦ م . ولكن لم يطل حكم الكرج لبلادهم ، إذ أن عناصر القوة لم تتهيأ لديهم بعد ،

---

(١) كرجستان : تعني بالفارسية بلاد القوة .

وروحهم المعنوية قليلة ، فالأمم الناشئة لا بد لها لكي تحافظ على استقلالها وتضمن لنفسها البقاء والحياة ، من أن تعتمد على عقيدتهـــا التي ترفع الروح المعنوية ، فتزيد الشعب شجاعة وحماساً ، وقوة واقتداراً . فلم يلبث السلاجقة أن احتلوا البـــلاد ، بعد أن استولوا على تركستان وخوارزم وايران ، وإن وقفت كرجستان في وجههم قليلاً . ثم عـــاد زعيم السلاجقة ألب أرسلان فاحتل كرجستان من جديد عام ١٠٧٢ . وهكذا فقد خلف السلاجقة العرب [١] في حكم جنوب القفقاس . ثم خلف السلاجقة المغول ، فاستولى جنكيز خان على بلاد أذربيجان، وسار على دربند ، واحتل مدينة شماخي عنوة ، وقـــد عاث المغول في البلاد الفساد . ثم أرسل جنكيز خان جيشاً نحو البـــلاد الشمالية ليملك دشت [٢] القفجاق ، وكان الأمر قد تهيأ لهم من قبل لما فعله المغول من إضعاف القوى والروح المعنوية التي كانت بها تيك البلاد ، على أنها لم تكن قوى مجتمعة فيخشى بأسهـا ، بل كانت طوائف شتى ، لا جامعة لهم ، مما سهّل على جيش جنكيز خان أن يستولي على الدشت بأسرع ما يمكن . وتم لجنكيز خان مملكة عظيمة ، وأكثر المغول في الجراكسة القتل والأسر فتفرقوا

---

(١) دام حكم العرب المسلمين لقفقاسيا مدة ٤٦٣ عاماً كاملاً .

(٢) دشت : تعني الصحراء .

أيدي سبأ في جميع الأقطار والأمصار ، وكان هـذا أول ورود الجراكسة على الديار المصرية ، فاشترى منهم نجم الدين أيوب مماليكه ، فصاروا ملوك مصر بعد الدولة الأيوبيـة ، ومنهم معز الدين أيبك وسيف الدين قطز والمنصور قلاوون وغيرهم من مشاهير الرجال الذين عرفوا باسم المماليك ووقفوا في وجه المغول الذين تقدموا في بلاد الشام فأوقفوهم في عين جالوت في فلسطين ودحروهم ، كما أن الفضـل يعود لهم في إخراج بقايا الصليبيين من مصر والوقوف في وجه البرتغاليين الذين أرادوا السيطرة على بلاد العرب وهدم الأماكن المقدسة.

ولما أحس جنكيز خان بقرب منيته ، قسم مملكته إلى أربعة أقسام فجعل دشت القفجاق بأسرها وبلاد داغستان وخوارزم وبلغار الروس ومما يؤمل أخذه إلى منتهى المعمورة وسواحل البحر الغربي[1] إلى ابنه الأكبر جوجي .

وفي عام ١٣٨٨ م جاء تيمورلنك زعيم التتار، وقام بنفس الأعمال التي قام بها في غرب آسيا من فساد ووحشية .

الاستعمار الروسي

وبعد المغول ضعفت الحكومات التي قامت في قفقاسيا ، وبدأ الصراع بين العثمانيين والفرس للاستيلاء على هذه المناطق.

---

(١) البحر الأسود .

وأخـــيراً في القرن الخامس عشر خضع الجراكسة لنفوذ العثمانيين الإسمي ، واحتل العثمانيون بعض المواقع على سواحل البحر الأسود وخصوصاً قلاع اناباوازاق[١]. ثم دخلت الروسيا في هذا الصراع للسيطرة على القفقاس وذلك منذ القرن الثامن عشر ، ووضع بطرس الأكبر نصب عينيه خطة للسيطرة عليها ، وفي عام ١٧٢٢ م وسَّع نادر شاه ملك ايران مملكته فحكم افغانستان وجورجيا ، ولكن استقلت هذه الأخيرة من بعده ، وبموجب معاهدة بلغراد ١٧٣٩ استقلت بلاد القبرداي عن الدولة العثمانية ، وهكذا بدأ الضعف يتسرب إلى هذه المنطقة بسبب وجود دولة صغيرة ، شكلت فراغــاً في تلك المنطقة مما أطمع الدول المجاررة فيها .

ومنذ عـــام ١٧٦٥ بدأت الروسيا[٢] تتوغل في بلاد

---

(١) ازاق آزوف .

(٢) لم يتعلم الروس مبادىء القراءة والكتابة إلا في القرن العاشر الميلادي ، وأسسوا أول حكومة لهم في كييف ولكنها انهارت أمام غزو التتار عام ١٢٢٤ ، وأثناء حكم التتار انقسم الروس إلى ثلاث مجموعات:

١ – روسيا الصغرى عند نهري بربيت والدينيبر .
٢ – روسيا الكبرى بجهات مدينة نوفوغرود وشمالها .
٣ – روسيا البيضاء في الغرب .

وبدأت روسيا في النهوض عـام ١٤٨٦ عندما اضمحلت شوكة المغول الشماليين فخضع هؤلاء المغول للروس .

الجراكسة ، فأقامت القلاع في بلاد القبرداي وأسكنت قوزاق الفولغـــا في بعض المناطق ثم استولت على شبه جزيرة القرم وبعد ستة أعوام من احتلالها ابتلعتها وضمتها إليها نهائياً وذلك في عام ١٧٧٧ م .

وفي عام ١٧٨٣ أخذت روسيا على عاتقها حماية بلاد الكرج وقبلها مجلس الحكومة الروسية في ٢٤ حزيران من ذلك العام وفي ٣ تشرين الثاني أدخلت طابورين من عساكرها مدينـــة تفليس ، وقـــد أزعجت هذه الحماية كثيراً من البلدان والحكومات المجـاورة ، وعلى الأخص العثمانيين ، وسكان القفقاس الذين وجدوا أنفسهم محصورين وسط أملاك روسيا من الناحية السياسية ووسط المسيحيين من الناحية الدينيـــة – حيث يكثر المسيحيون في بلاد الكرج – وقد ترتب على ذلك نزول الداغستان بقوة عظيمة ، ودخلوا بلاد الكرج ، ولكن الروس أخرجوهم ، ثم زحف العثمانيون من الجنوب والداغستان من الشمال بقيادة عمر خان ، ولم تستطع روسيـا حماية الكرج بسبب انشغالها في الشمال بالحرب ضد الشيخ منصور والشاشان والقبرداي وإن كانت قد خرجت من بلاد الكرج إلا انها ضمت ولاية ستراخان إليها في شمال القفقاس .

وقد عقدت روسيا معاهدة سرية مع النمسا لاقتسام الدولة العثمانية وذلك في عام ١٧٨٧ م وبناءً عليها فقد أعلنت روسيا

الحرب على الدولة العثمانية وتقدمت في منطقة كوبان الجنوبية التي تخضع اسمياً للدولة العثمانية ، ولم تجدِ مقاومة الجراكسة والعثمانيين لهذا التقدم ، فقد احتل الروس المنطقة ، وأسروا القائد العثماني بطال باشا ، ولكن بعد عامين دارت الدائرة على الروس فتركوا المنطقـــة ، واجبروا على الخروج من بلاد الكرج ، ونقلوا عساكرهم إلى شمـــال القفقاس ، ثم وقعت معاهدة بين العثمانيين والروس أيام السلطـــان سليم الثالث ، اعترفت فيهـــا الدولة العثمانية بتبعية شبه جزيرة القرم إلى روسيا ، وتوقفت الحرب بين الدولتين .

واستغلت إيران ضعف الكرج وتخلي الروس عنهم ، فدخلت بلادهم ورفضت روسيـــا انجادهم ، ولكنها عادت فيما بعد فأنجدتهم وأخرجت الايرانيين من بلاد الكرج وذلك في عام ١٧٩٦ م .

وتوفيت امبراطورة روسيا كاترين الثانية وخلفها القيصر بول فخالف أسلافه ، وسحب القوة من بلاد الكرج ، واعتبر مساعدة الروس للمسيحيين غير ضرورية ، ولكنه عاد عن رأيه ، وضم كرجستان إلى روسيا ممـا أجبر عمر خان قائد الداغستان عـــام ١٨٠٠ م أن يهاجم الكرج ولكنه فشل ، وكان أن روسيا ضمت الكرج إليها نهائياً عام ١٨٠١م وابتلعتها مع ما ابتلعته .



مصور
مواطن الشعوب الشركسية
وجيرانها
بحر آزوف
قوزاق
تتار
ششن
داغستان
أرمن
تتار
تركيا
سورية
العراق
إيران

وفي عام ١٨١٠ ضمت روسيا إليهـا حكومة ايمارتي التي يحكمها الانجاز (الاباظة) وحكومة غوريا في منطقة باطوم . وفي عام ١٨٢١ م عقدت معاهدة ادرنة التي قضت بأن تضع روسيا يدها على جزء من الشمال الغربي لبلاد الجراكسة وهي جهة كوبان بدلاً من العثمانيين . وبعد هذه الفترة وقفت الدولة العثمانية مكتوفة الأيدي أمامالأحداث التي تجري بينالجراكسة والروس ، وأن عدم مساعدة ايران والدولة العثمانية للجراكسة في حروبهم ضد روسيا ، مكن الروس من ضم بلاد الجراكسة جزءاً بعد جزء إلى بلادهم وابتلاعها في النهاية ، كما مكنهم من اضطهاد المسلمين وإجبارهم على ترك ديارهم وتهجيرهم ، أو ترك أراضيهم وإفقارهم ، كما جعل ايران وتركيا أمام أطماع روسيا مباشرة مما يسهل عليها تنفيذ سياستها التقليدية في الوصول إلى المياه الحرة أو السيطرة على المضائق .

وعندما وجد الجراكسة أنفسهم في الميدان وحيدين ، كان لا بد من الاعتماد على النفس وتقوية الروح المعنوية ، فاستلهموا العقيدة فتحركت قوة الاسلام الكامنة فرغبتهم في الجهاد ، ودفعتهم للموت في سبيل الله ، ومن طلبالموت وهبت له الحياة ، واسترخصوا الدنيا فجاءتهم طائعة .

وألفوا حكومة قومية في بلاد الداغستان كان على رأسها

مشايخ الطرق وعلى رأسهم الشيخ شامل الذي أرسل رسله إلى بلاد الجراكسة ، وكان من الذين أرسلهم إلى جراكسة كوبان الشيخ محمد أمين وذلك للدعاية ضد روسيا ، وشحذ الهمم ، والتعريف بالجهاد في سبيل الله ، وقد استطاع الشيخ محمد أمين أن يضم المجاهدين إليه ،فقاموا بزعامة كراندوق بك واستولوا على جملة قلاع روسية . ولم يكن الشيخ شامل شيخاً بمفهومنا الحالي وإنما كان عالماً مسلماً فهم الاسلام دولة فكان رئيساً للحكومة ، وفهمه سياسة فاستطاع أن يغتنم الفرص المناسبة، ويعتمد على مؤيديه في مناطق نفوذ أعدائه ، وفهمه إصلاحاً فأسس المحاكم وأقام العدل،وفهمه قوة فأوجد المصانع الحربية « وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » .

وقد بدأت الحرب بين الشيخ شامل وبين روسيا التي هالها أن ترى دولة اسلامية قوية بجوارها ، ومعنى هذا أن مصيرها محتوم ، فالعزة للمؤمنين وهم الأعلون ما داموا يحكمون بما أنزل الله، كما هالها أن تجد الجراكسة تجتمع كلمتهم ويحاولون النهوض . وفي عام ١٨٤٠ م بدأ الشيخ شامل خطة الهجوم التي استمرت أكثر من عشرة أعوام ، وبقيت رحى

الحرب حتى عام ١٨٥٣ حيث بدأت حرب القرم بين روسيا من جهة وبين تركيا وفرنسا وانكلترا والبيه مونت من جهة أخري توقفت أثناءهـا الحرب بين الشيخ شامل الذي بدأ يجمع الشمل ويزيد الاستعداد ، وروسيا التي شُغلت في حرب القرم .

وفي عام ١٨٥٩ بعد انتهاء حرب القرم ، حشدت روسيا حشوداً عظيمة بلغت أكثر من ٣٠٠ ألف جندي في قفقاسيا وهاجمت الشيخ شامل ، فاستطاعت أن تأسره وذلك في عام ١٨٦٣م ، ومنذ ذلك العام المشؤوم بدأت هجرات الجراكسة الفوج تلو الفوج من وجه الروس الذين ابتلعوا البلاد وضموها إلى أراضيهم ، ثم التفتوا إلى السكان يسومونهم سوء العذاب يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم انهم كانوا من المفسدين . وكلما اعتصمت جماعة من الجراكسة بالصبر ، وجدوا أنفسهم إلى الهجرة أحوج .

الأجناس في قفقاسيا

وتدعي روسيا في احصائياتها أن عدد سكان القفقاس إنما هو ١٢,٢٣٠,٠٠٠ نسمة موزعون على الشكل التالي :

روس ٣,٧٢٠,٠٠٠

تتار ٢,١٠٠,٠٠٠

الكرج ٢,٠٠٠,٠٠٠

الأرمن ١,٥٠٠,٠٠٠

الداغستان ١,٠٠٠،٠٠٠

الجراكسة ٠,٦٠٠,٠٠٠

القوصحة ٠,٣٠٠,٠٠٠

الشاشان ٠,٣٠٠,٠٠٠

ترك ٠,١٠٠,٠٠٠

كرد ٠,١٠٠,٠٠٠

يهود ٠,٠٦٠,٠٠٠

المان ٠,٠٥٠,٠٠٠

أجناس أخرى ٠,٤٠٠,٠٠٠

المجموع ١٢,٢٣٠,٠٠٠

أما من الناحية الدينية فإن التتار والداغستان والشاشان والجراكسة والكرد والترك فانهم جميعاً يعتنقون الاسلام إضافة إلى ٢٥٠,٠٠٠ من الكرج و ١٥٠,٠٠٠ من القوصحة وعدد قليل من الأرمن ، كما أن قسماً من قبيلة أباظه يعتنق النصرانية وعلى هذا فلا يرون – حسب ادعائهم – المسلمين يزيدون على ثلث السكان إلا قليلاً ، وعلى حين أن الواقع أنهم أكثر من النصف بكثير، فسفوح جبال القوقاز الشمالية ودشت القفقاس يقطنها المسلمون فقط بينما يكثر المسيحيون في السفوح الجنوبية. ورغم أن القفقاسيون يتألفون من عناصر كثيرة وقبائل مختلفة إلا أنهم يعرفون في بلادنا جميعاً باسم الجراكسة[١] ، ويمكن أن نميز قسمين رئيسيين يختلفان من حيث اللغة وإن كانا يتفقا في أكثر العادات :

١ – **الجراكسة** : والإسم القومي لهم « الاديغة » ويعودون

---

(١) يقال أن معنى كلمة جركس : هو الجندي البارع وقد أخذوا هذا الاسم منذ أيام ابراهيم عليه السلام . كما يقال أن التتار أطلقوا عليهم هذا الاسم ومعناه قاطع الطريق حيث يشرفون ويتحكمون بالممرات الجبلية بين آسيا وأوربا .

ويقال أن الفرس أطلقوا عليهم هذا الاسم ومعناه أنه يضم أسماء القبائل الأربع الاخوه ويطلق عليهم العرب اسم سركس وسراكس .

من حيث الجنس إلى المجموعة الهندية والأوربية ويقال أنهم من أحفاد الحثيين كما يقال أنهم من سلالة المصريين القدماء ، فإن رمسيس الثاني قد وصل في فتوحاته إلى بلاد القفقاس ، وقد ترك هناك حامية من المصريين عند عودته ، ويحترم الجراكسة رمسيس الثاني ويقدرونه . كما يدّعي بعض أشراف الجراكسة انهم من سلالة العرب الساميين وانهم من قبيلة قريش ، ولكن أكثر الشعوب الاسلامية تدعي هذا الادعاء لتتشرف به .
وهم مجموعة من القبائل أشهرها :

١ – الأباظة (الانجاز) ويختلفون عن الجراكسة حيث يقيمون على سواحل البحر الأسود ومعزولين بواسطة الجبال الشامخة التي تبقى مكللة بالثلوج مدة ٩ أشهر متواصلة ، أما صلتهم بالكرج فأكثر، بسبب سواحل البحر السهلة الاجتياز، كما يقطنون الجبال العالية ، ويعرف القسم الجنوبي منهم المتاخم للكرج باسم الانجاز وأكثريتهم من المسيحيين ، أما القسم الشمالي الذي يقع شمال القفقاس فيعرف بالأبازين وقد اختلطوا بالقبرداي واعتنقوا الاسلام ويعرفون بشدة تمسكهم بدينهم .

٢ – الابزاخ : ويقطنون في بداية السهول التي تلي مرتفعات القفقاس الشمالية ، ومعنى اسمهم يدل على هذه الإقامة .

٣ – القوشحة أو القوصحة : والاسم القومي لهم الايرون أما الاسم التاريخي فهو الاستين ، ويعرفون بين العامة باسم القوصحة ، ويطلق الكرج على القسم الجنوبي منهم اسم توالنا ويسكنون القسم الأوسط من جبـــال القفقاس في مرتفعاته المنيعة وقممه الشاهقة المعروفة « قازبك » و « البروز » .

٤ – القبرطاي : ويقيمون شمال القوشحة أي في السفوح الشمالية لجبال القفقاس ، وهم متمسكون بدينهم ، محافظون على تقاليدهم ، مبالغون بعصبيتهم . وقد حاول اسلام بك المصلح العظيم إصلاح نظام الحياة الاجتماعية والعادات الجركسية (أديغة خابزه) ، وقد اشتهر القبرطاي بتربية الخيل .

٥ – بزادوغ : وتقيم في شمال البلاد الجركسية وتنتشر حتى مصب نهر كوبان .

٦ – شابسيغ : وتقيم في شرق بزادوغ وحاتو قواي ثم هناك قبائل صغيرة عديدة .

٢ – **الداغستان** : ويقيم الداغستان [١] في شرق القفقاس بينما يقيم الجراكسة في غربها وشمالهـــا الغربي ، ويسيطر الداغستان على الممر الذي يساير سفوح القفقاس الشرقية ويشرف

---

(١) الداغستان : سكان الجبـــال حيث هي كلمة في التركية تدل على الجبل .

على بحر قزوين ، وينتشرون شمالاً حتى نهر ترك ، وتختلف لغتهم عن الجراكسة . ومن الشعوب الداغستانية :

١ – الداغستان : وهم سكان الجبال .

٢ – الشاشان : ويصل عددهم إلى نصف مليون ويسكنون بالقرب من نهر ترك ، ولهم اليوم جمهورية ذات حكم ذاتي ، ويعتقد الشاشان انهم من أصل عربي .

٣ – القوموق : ويعتبرون من القبائل الداغستانية ويتكلمون اللغة التركية ويقيمون عند مصب نهر ترك ، وجاءت هذه اللغة بسبب مرور الفاتحين من بلادهم ، مما أنساهم لغتهم وهم أول من اعتنق الاسلام في قفقاسيا وتأسست في بلادهم امارة طارقي الشامية ، وكانت عاصمة الامارة مدينة طارقي وتسمى اليوم بتروفسك .

٤ – الآندي : وهم مجموعة من القبائل من الداغستان ويعرفون باللزكي وإن كانت كلمة لزكي كثيراً ما تدل على الداغستان بكاملهم وقد تأسست لهم حكومة مستقلة تخضع للأمير شامل بادىء ذي بدء .

- ٣ -

العادات الشركسية والتقاليد

الشراكسة مجموعة من القبائل ولكل منها أميرها وهو من العائلات الشريفة وتنتقل إليه الأمارة بالوراثة ويسمى «بشي» ومعنى هذا أن نظام الحكم يقوم على طريقة حكم الأشراف . وتنقسم القبيلة في داخلها إلى أقسام صغيرة ، وعلى رأس كل منها « القولاس » أو « ورق » وهم الذين يصرّفون الأمور داخل أقسام القبيلة . وهناك مجلس للأعيان وظيفته النظر في إعلان الحرب وانتخاب رئيس القبيلة ومحاكمة الأمراء وما إلى ذلك ، ويكون عدد أعضاء مجلس الأعيان بعدد أقسام القبيلة فلكل قسم ممثل له في المجلس ، ويفصل «الورق» في المنازعات بين الأهالي حسب الشريعة الاسلامية وحسب العادات والتقاليد التي تعرف باسم « أديغة خابزه » والتي هي غير مدونة ، ولكنها محفوظة مرعية ، والأمير الذي لا يحافظ على هذه

العادات والتقاليد يُعزل ، فهذه العادات تعتبر بمنزلة الشريعة والقضايا التي لا يمكن للورق أن يحلها تحـال إلى « البشي » ، أما قرارات إعلان الحرب فتعرض أولاً على جمهور الأهالي مع بيان الأسباب التي دعت لذلك الاعلان ، فإن قبلوها أعلنت الحرب ، وإذا رُفضت أعيد النظر في القرار ، وهذا يعني أن للفرد قيمة ويؤخذ رأيه ثم يستشار وله مركزه . وقد اقيمت المحاكم الشرعية في القرن التاسع عشر أيام الأمير عادل كراي وهو بشي القبرطاي .

وللشراكسة لغة خاصة بهم وهي لغة سماعية ليس لهـا أبجدية ، وتحاول روسيـا جاهدة ليكتبوا لغتهم ويستعملوا الأبجدية الروسية ،حتى تمكنهم من الحفاظ على لغتهم وارتباطهم بتاريخهم الجاهلي وخوفاً من أن يتعلموا اللغة العربيـة لغة الاسلام فتصبح لغتهم الرسمية ، ويرتبط مصيرهم عندئذ بمصير بقية إخوانهم المسلمين في جميع أرجاء الأرض . وتختلف لغة الشراكسة عن لغة الداغستان ، ولا يعرف الواحد منهم لغة الآخر . وليس هناك من عاداتهم وتقاليدهم شيء مدوّن ، والأديغة هو الاسم القومي لهم ومعنـاه الاصطلاحي الإنسان الكامل والمواطن الرقيق ، ويعتقدون أنه الأصل الأساسي للعرق الأبيض . ويمتاز الشراكسه بالشعر الأشقر والعيون الزرق والقامة المتوسطة والطبع الحاد ، والاستقامة في المعاملة

والقناعة في الربح القليل ، ويعرفون أيضاً بالطاعة التـامة ، فالأبناء يطيعون آباءهم إطاعة مطلقة والمرؤوس يطيع رئيسه وهذا ناشيء عن البيئة التي عاشوا فيها واضطروا لإطاعة الحاكم الغالب . ولهذا فالشركسي جندي بالطبع ، بل جندي مثالي والمرأة الشركسية خير زوجة في طاعة زوجهـا . كما يعرف الشراكسة بالروح التعاونية المنتشرة فيما بينهم فلا تجد سائلاً أو محرومـاً بينهم ولا يمكن أن تجد سائلاً شركسياً في أية مدينـة كانت ، كما أن الآباء لا يعاملون أبناءهم بالقسوة . ويشتهر الشراكسة بإكرام الضيف ، ومن الأمثـال الشائعة عندهم : «دار لا ضيف فيها لا بورك فيها» ، « الضيف شريك الروح » ، كما انهم يفتخرون بإجارة المستجير والوفاء بالوعد . وتنتشر العدالة بين الشركس فلا يسمحون للقوي أن يتغلب على الضعيف وأن يهضم حقه ، ويقال أن الأمير عادل كراي حضر يوماً جلسة للمحكمة المنعقدة برئاسة القاضي «أبوق حاجي اسحاق » وبعد أن استمع إلى المناقشات والمرافعـات همّ بالانصراف ثم التفت إلى القاضي المذكور وقال له إذا لم تحافظ على الحقوق العامة في دائرة العدالة التامة فلأقيمن العدل بهذا – وأشار إلى سيفه – » . فقال له القاضي : « وإذا رأيت فيك إهمالاً أو تقصيراً في تنفيذ أحكامي التي أستمدهـا من الشريعة الغراء فإني أنفذ فيك أمر ربي » .

ويعرف الشراكسة بعزمهم وقوتهم ومهارتهم في فن الفروسية ويشتهرون في تربية الخيول التي يعدّونها للمعارك وخاصة القبرطاي ، وقد استفاد العثمانيون من شجاعتهم ، فأسسوا فرقاً منهم واستخدموها في معاركهم التي خاضوها ضد أعدائهم ، وكثيراً ما كانت الدولة العثمانية تلبّس بعض الفرق الخيالة اللباس الشركسي . كما أن روسيا التي عرفت بسالة الشراكسة وشدة بأسهم بما لاقته في حروبها معهم من صدمات جعلها تتخذ معهم أحياناً سياسة اللين والتودد ، كما أنها اتخذت ملابسهم زياً لبعض فيالقها ، رغم أنها لا تزال إلى اليوم تحتقرهم وتعتبرهم متأخرين، وتنظر إليهم نظرة إزدراء ، وقد ذكر لي أحد الضباط البحارة الذين قاموا بجولة في البحر الأسود انه حينما وصل إلى أول البلاد الشركسية، قام المشرف على الجولة وهو روسي بتعريفهم بسكان هذه المناطق وقال لهم : إن هؤلاء السكان قبائل بدوية أشبه عندكم بما تسمونهم النَوَر (الزط) . وتقول أساطير الشركس بأن أقدم شجعانهم يعرف باسم « نارت » . ويتقن الشراكسة من القديم الصناعات المعدنية الحربية كالسيوف والكامات،ويفتخرون بالذين يقتلون في المعارك الحربية . وقد عرف الفرنسيون عندما احتلوا سورية شجاعة الشراكسة فاستفادوا منهم ، وألفوا منهم فرقة خاصة اشتهرت بالقوة والشجاعة ، وعرفت بالنظام والطاعة

وقد أبدوا في حرب فلسطين قدرة فائقة ومعرفة بفنون القتـال .

ويعرف الشراكسة بلباس القالباق والصاكوه وهي حرملة طويلة يلبسها الفارس فتغطيه ويغطي كفل جواده .

ويتخير الشراكسة زوجاتهم بعيـــداً عن ذوي قرباهم ، ولا تـكلف العروس بعد الزفاف بأية خدمة لمدة طويلة، وتلبس الفتاة بعد الزواج الحجاب الصحيح ، وتطيع زوجهـا الطاعة التامة ، ولا يظهر الصهر أمام حميه عقب الزواج إلا بعد مدة طويلة وفي حفلة خاصة لها تقاليدها ومراسيمهـــا ، وتعرف الفتاة الشركسية بأن نضارتها تذوي بسرعة بعد زواجها .

وقد عاش الشراكسة في منطقة نائية عن بقية المسلمين ، تفصلهم عنهم من الجنوب جبال القفقاس الشاهقة المنيعـــة وينتشر في جنوبها أكثرية المسيحيين أيضاً ، وأما من الشرق فيفصلهم بحر الخزر ، ومن الغرب يعزلهم البحر الأسود، لذلك وجدوا أنفسهم في عزلة تامة عن بقية المسلمين ونتيجة لهذه العزلةاحتفظوا بكثير منعاداتهم الجاهلية القديمة رغم اعتناقهم الاسلام ، وليس غريباً أن نجد الشركسي يحافظ على عبادته الدينية ويتحمس لها وبنفس الوقت يحافظ على عاداته وتقاليده الموروثة رغم انها تخالف الاسلام صراحة . ولا شك أن هناك

رجالاً يريدون إصلاح هذه العادات الجاهلية ولكنهم يعجزون أمام التيار فلا يستطيعون التأثير إلا على أهلهم ، ولكن هذا العدد بدأ يكثر تدريجياً كما أن الأسر التي تعيش منفردة وبعيدة عن الجو الشركسي بدأت بحكم الوظيفة تترك هذه العادات أيضاً ثم ان الفتيات اللواتي يتزوجن من غير الشركسي يتركن عاداتهم أيضاً، ولم يكن الشركس قديماً ليزوجوا بناتهم من غير جنسهم ولكن هذه العادة بدأت تزول وأصبح الاختلاط قائماً وبهذا الاختلاط تتقلص التقاليد القديمة .

ومن أهم العادات الجاهلية التي لا تزال مرعية هي لباس السواد حداداً على الموتى رغم أن الدين الاسلامي ينهي عن الحداد ، وكشف الرأس عند الدخول على عظيم وعدم تغطية رأسه ما دام في حضرته .

ومن العادات الجاهلية أن الفتيات لا يتحجبن ما دمن غير متزوجات ويخالطن الرجال ويشاركنهم في أحوال كثيرة ويجلسن في مجالسهم ويرقصن معهم ، كما أن الفتاة هي التي تستقبل الشباب في الأعياد والمناسبات ، وهي التي تجلس معهم تحادثهم ، وهذه ولا شك مخالفة صريحة للاسلام ، وإن كان أنصارها – وهم من الشباب – يزعمون أن ما يحدث لا يخرج عن دائرة الحشمة والوقار . وهذه المخالطة تمكن الشاب من معرفة أخلاق الفتيات فيختار منهن ما يناسبه وتتعرف الفتاة

كذلك على طباعه وسلوكه وميوله ، وعندما يتم الاتفاق بين الشاب والفتاة يتفقان على موعد تذهب فيه الفتاة مع خطيبها إلى بيت أحد أصدقائه أو أصدقاء العائلة فتنزل فيه ، كما يحل هو ضيفاً عند أحد الأقرباء ، وبعد مدة يذهب أهل الشاب لطلب يد الفتاة وفي هذه الأثناء يعذبونه حتى ينقذه منهم الفرار أو قريبه الذي يحل عنده فيخلصه بتقديم ذبيحة أو اثنتين . هذا عند بعض القبائل ، أما عند بعضها الآخر فإن الفتاة عندما تتواعد مع خطيبها ينقلها على ظهر جواده ويطلق الرصاص إيذاناً بأخذ الفتاة ثم ينطلق ، وعندها يسرع أهلها وأقرباؤها للحاق به ولكنهم لا يتجاوزون مكاناً محدوداً يعودون من بعده ، وبعد فترة يرسل الشاب من يطلب يد الفتاة له ، وقد بدأت هذه العادات بالانقراض تدريجياً .

وقد كانت تقاليد الزواج قاسية ، فبعد الاتفاق بين الشاب والفتاة والذهاب إلى منازل الأصدقاء يرسل الشاب من يطلب له يد الفتاة فإذا حصلت الموافقة فبها ونعمت ، وإن لم يقبل أهل الفتاة سالت الدماء بين العائلتين .

وان الشيء الذي يؤسف له أشد الأسف تلك السهرات التي يقضونها أثناء حفلات الزواج حيث يختلط الشباب بالفتيات فيتراقصون معاً ويتسامرون حسب عادات وتقاليد مرعية ، فمكان الفتاة الجهة اليمنى من الرجل المراقص لها ، كما أن الفتاة

لا ترقص إلا مع من كان من درجتها ومكانتها و ... وجملة من المراسيم المتبعة التي يطول شرحها . والشاب الذي لا يحضر هذه الحفلات ولا يرضى بها حيث يرى فيها المخالفة الصريحة للاسلام ينظر إليه نظرة خاصة من بقية الشباب ويعتبرونه مخالفاً للعادات القومية، ومن جهة أخرى فإن الشباب المراهقين والذين لا يهتمون بالدين يُعتبرون من الداعين لمثل هذه الحفلات ومتحمسين لها باعتبارها ترضي شهواتهم وتشبع غرائزهم ويحاجون خصومهم بأنها عادات وتقاليد قومية يجب المحافظة عليها .

- ٤ -

الحياة الاقتصادية في قفقاسيا

تتمتع قفقاسيا بموقع ممتاز ، حيث يقع البحر الأسود في غربها مما يضفي عليها مناخاً جيداً هو مناخ البحر الأبيض المتوسط ، فالصيف جاف ولطيف وإن كان في الأودية حاراً نسبياً لكنه في المرتفعات معتدل وجيد، والنسيم صحي عليل، أما الشتاء فمطير ، وهذا المناخ غير معروف في بلاد الاتحاد السوفييتي التي أكثرها شديدة البرد وهذا ما حدا بالروس إلى أن يوجهو عنايتهم إلى هذه المنطقة لاستثمارها جيداً وإنتاج جميع ما يحتاجونه من منتجات البلاد المعتدلة الدافئة والمناطق الحارة ليتسنى لهم تطبيق سياسة الاكتفاء الذاتي وعدم الاستيراد من الخارج ، وبالفعل استطاعوا إنتاج الشاي مع انه من زراعات المناطق الحارة وقد انتشرت زراعته انتشاراً جيداً ، كما استطاعوا زيادة إنتاج الفاكهة من الأودية والسفوح

الجبلية والسهول المروية مع أنهـــا من زراعات البلاد المعتدلة ولا يمكن إنتاجها في أراضي الاتحاد السوفياتي إلا على نطـاق ضيق ، ولكن هذه المزروعات ـ الشاي والفاكهة ـ وإن كانت تنتجها قفقاسيا ، ويعمل بها سكان المنطقة ، إلا أنهم لا يستفيدون منها في شيء ، فهم يعملون في أرضهم ليطعموا منها الروس ، حيث تؤخذ هذه المنتجات وتوزع في مناطق أخرى على سكان آخرين .

أما الزراعة التقليدية فهي الحبوب حيث يزرع في الشمال والجنوب لأن المنطقة الوسطى تغلب عليها الصفة الجبلية مما يجعلها غير ملائمة للزراعة . ثم عرفت المنطقة زراعة القطن والشوندر السكري والبطاطا والكتان .

وتعتبر المنطقة ذات أهمية بالنسبة لتربية الحيوان وخاصة في مناطق الشمال والسفوح الجبلية إضافة إلى الحياة القبلية التي لا تزال سائدة ، كما أن بحر الخزر يعتبر ذو أهمية بالنسبـــة للصيد البحري .

ومنطقة قفقاسيا غنية بالثروات المعدنية فمنطقة البحر الأسود تعتبر ثاني منطقة في العالم بعد منطقة الخليج العربي من حيث احتياطي البترول ويستخرج اليـــوم من باكو وباطوم وغروزني ومايكوب .

ولكن هذا الغنى لا يفيدها شيئاً حيث ينقل إلى روسيا ليسيِّر آلاتها ومحركاتهـا ، وإذا كان البترول العربي تستثمره شركات أجنبية استعمارية وتنقله إلى البلاد الأوربية ولا تدفع للبلد المنتج إلا شيئـاً قليلاً جداً لا يستحق الذكر بالنسبة إلى مرابحها الطائلة ، فإن البترول القفقاسي ينقل إلى روسيا دون دفع شيء ولو كان قليلاً ، وإذا كنا نحن العرب نهدد الشركات بالتأميم ، ونتوعد شركات النقل بنسف الأنابيب وتفجيرهـــا ونطلب المزيد من العائدات والمخصصات البترولية ، ونتحفز بشكل دائم للانقضاض على هذه الشركات الاستعمارية ، فإن القفقاسيين ينقلون بترولهم تحت نظر أعينهم دون أن يعبّروا عما بأنفسهم ولو بكلمة وإذا تجرأ أحدهم وعبر عما يجيش في نفسه ولو بعبرة يذرفها كان الموت بانتظاره وأقرب من الدمعة إلى عينه . ويمكن أن نضيف الشلالات الكهربائية الموجودة في سفوح الجبال ومنها نهر غوموش . كما أن النحاس يوجد في أرمينيا، وكذا الرصاص والتوتياء يوجدان في شمال القفقاس ، كما أن بحر الخزر يستخرج منه الملح .

وفي قفقاسيا صناعة تقليدية هي الصناعة النسيجية وخاصة الصوفية منها في جورجيا ، إضافة إلى صناعة السجاد ، أما بالنسبة للصناعة المعدنية فلا تزال ضعيفة حيث تنقل الثروات المعدنية إلى مناطق بعيدة عن مواطن استخراجها كما هو الحال في افريقية .

وليس هناك من تجارة داخلية أو خارجية ، فكل شيء بيد الدولة فهي التي تأخذ من منتجات المنطقة وتأتي بالشيء الذي تريد وتوزع ما ترغب ، وتمنع ما تود ، دون النظر إلى حاجة السكان أو رغبتهم .

والمواصلات لا توجد لحاجة المنطقة إليها ، ولا لرفاهية الشعب ، ولا للطلب المتزايد ، وإنما تمد لإحدى غايتين (١) لتأمين نقل منتجات المنطقة إلى البلاد الروسية (٢) لغاية عسكرية من أجل نقل النجدات والجنود لاستخدامها في حالة تفكير أية جماعة بالتمرد من أجل عقيدتها أو حريتها أو تقرير مصيرها ، لذا نجد المواصلات تقتصر على مناطق الانتاج فتصلها مع بعضها ومنها إلى مناطق الصناعة في روسيا ، وإما في المناطق ذات الأهمية العسكرية ، ونرى بشكل عام ان الطرق المعبدة والسكك الحديدية تساير السواحل ثم تتصل خطوط السواحل مع بعضها في شمال القفقاس بخط واحد ، وفي جنوبها بخطين أحدهما يساير الحدود الايرانية والتركية ، وآخر يمر بتفليس عاصمة جورجيا .

أما المناطق الجبلية التي يمكن أن تكون مصايف شهيرة لجودة مناخها وحسن مناظرها،ومفاتن أوديتها الجميلة وروابيها الخضر فلم تبذل أية مجهودات مهما كانت ضئيلة في سبيل ربطها مع بعضها ورفع مستواها ، والعناية بها ، وحسب أقوال الذين

التقسيمات في قفقاسيا
الجمهوريات والمقاطعات
ذات الحكم الذاتي

روسيا
جورجيا
تفليس
تركيا
ايران
اذربيجان
ارمينيا
باكو
دربنت

مرّوا في المنطقة فإن المسافر ينبّه إلى عدم اختلاطه بالسكان أو التباحث معهم بأي حديث مهما كان وخاصة إذا كان الانسان المسافر مسلماً ، إضافة إلى أن الروس ينظرون إلى السكان القفقاسيين نظرة ازدراء واحتقار .

التقسيمات

إذا نظرنا إلى قفقاسيا نجد أقساماً كثيرة ولكنها تختلف عن بعضها بتركيب الأسماء وطريقة الحكم ودرجة الاستقلال فنجد :

١ً – الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية ، وتشمل :

(١) أرمينيا .
(٢) أذربيجان .
(٣) جورجيا .

٢ً – الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية ذات الحكم الذاتي ، وتشمل :

(١) كبارديا بلكاريا .
(٢) اوستينا الشمالية .

(٣) شاشان اتغوشيا .

(٤) ابخازيا .

(٥) آجاريا .

(٦) ناختيشيفيان .

(٧) داغستان .

٣ً – المقاطعات ذات الحكم الذاتي ، وتشمل :

(١) الأديغة .

(٢) الكاراتشاي الشركسية .

(٣) اوستينا الجنوبية .

(٤) قرهباخ الجبلية .

ولا بد من بعض الملاحظات على هذه التقسيمات :

١ – إن هذا التقسيم غريب من نوعه حيث أن المنطقة صغيرة ومع هذا فهي مقسمة إلى أربعة عشر جزءاً ، ولكن بإلقاء نظرة على تقسيمات قفقاسيا تقفز إلى أذهاننا تلك التقسيمات الغريبة أيضاً والموجودة في الجنوب العربي ، والتي أقامها الاستعمار الانكليزي حتى يتمكن من السيطرة على المنطقة ، كما تقفز إلى أذهاننا تلك السياسة المتبعة عند جميع المستعمرين وهي – فرق تسد – .

٢ – تتداخل الأقسام مع بعضها البعض ، بحيث يدخل القسم الأول في آخر أكبر منه ، وهو بدوره يدخل ضمن قسم ثان وهكذا ، ثم إن هـذه التقسيمات من حيث المعنى يصعب على الانسان التفريق بينها وتمييزها عن بعضهـا ، فهناك جمهوريات اشتراكية سوفيتية وأخرى اشتراكية سوفيتية ذات حكم ذاتي ، وثالثة مقاطعات ذات حكم ذاتي .

٣ – من الملاحظ أن المناطق الجبلية التي يمكن أن تكون مركزاً للتمرد أو الثورة مجزأة إلى أقسام صغيرة، بينما المناطق السهلية واسعة نسبياً ومن المعروف أن سكان الجبال أشد قوة وأكثر تمرساً في الحروب وقد عجم الروس عود هؤلاء السكان أثناء حروبهم معهم .

٤ – إن المناطق الشركسية في شمال القفقاس مجزأة أكثر من غيرها وذلك بسبب ما عرف به الشراكسة من بسالة وقوة وشجاعة أثناء صراعهم مع الروس ، ومحاولة منعهم من دخول البلاد ، والشراكسة جنود بالفطرة بسبب مواقعهم الجبلية وبلادهم الوعرة .

٥ – إن المناطق التي يكثر فيها المسلمون تكثر تقسيماتهـا فكأن العداء بالدرجة الأولى إنمـا هو الإسلام الذي فيه القوة الكافية التي يخشاها الروس بل كافة الأوربيين .

٦ – إن هذه التقسيمات لا تخضع لأية اعتبارات قوميــة رغم حرص الروس الشديد على التأكيد على الاعتبارات القومية في تقسيماتهم ، فالشراكسة تضمهم جميعاً قومية واحدة ، ومع ذلك فأراضيهم غير مجزأة إلا إلى ٩ أقسام ، بعضهـا الواسع وبعضها الضيق ، منها الجمهوريات ومنها المقاطعات .

- ٥ -

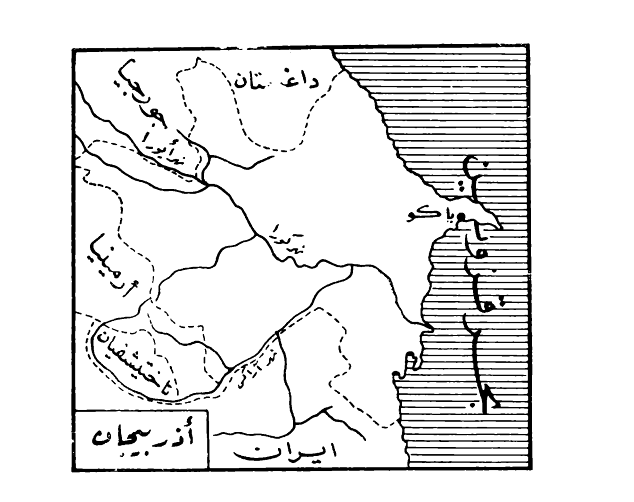
أذربيجان

تقع أذربيجان في الجنوب الشرقي من قفقاسيا ، وتشمل سهول نهر كورا المنخفضة والتي تحيط بها الجبـال من جميع الجهات ، فلا تنفتح إلا إلى جهة الشرق حيث بحر قزوين ، وهذه الجبال هي القفقاس من الشمال ، وأرمينيا من الغرب ، وجبال أذربيجان الايرانية من الجنوب، وتجري المياه نحو هذه السهول من جميع الأطراف من الجبال المحيطة بها ، وتكون شديدة الانحدار لقصر المسافة التي تقطعها، فتحفر أودية واسعة سحيقة ، تعتبر من مراكز الزراعة في تلك الأرجاء .

وأمطار هذه السهول نادرة لانحصارها بين المرتفعات التي تحجب الأمطار عنها ، مما يجعلها جافة ، ولكن هذا الجفاف

يعوض بالمياه المتدفقة التي تجري من المرتفعات ، وأشهر هذه المجاري وأطولها نهر كورا الذي يجري من جورجيا ، ويمر من عاصمتها تفليس ، ثم يدخل أراضي أذربيجـان ، حيث يرفده نهر أيورا المنساب أيضاً من جورجيا، ويتجه النهر نحو الجنوب الشرقي ثم نحو الشرق حيث يلتقي بنهر أراكس الذي يؤلف الحدود بين ايران وتركيا من جهة ، والمقاطعات القفقاسية من جهة أخرى ، وبعد التقاء نهر كورا بنهر أراكس ، تكثر الفروع والأقنية وتتصل مع بعضها ، إلى أن يصب النهر في البحر ، وقد أقيمت مشاريع كبرى كان من نتيجتها إمكانية زراعة القطن على نطاق واسع وهو من النـــوع المصري الممتاز ، كما يزرع القمح الشتوي ، إضافة إلى المزروعات التي على السفوح الجبلية ، حيث الكرمة والحبوب ، وفي الأودية الفاكهة والتبغ ، وعلى مجاري الأنهار الشاي وأشجار الجوز ، وتكون أمطار السفوح القفقاسية أغزر من غيرها لتعرضها للرياح الغربية مباشرة ، في حين أن السفوح الأخرى تدير ظهرها للرياح الممطرة فلا تأخذ منها إلا نادراً .

والمحاصيل الزراعية في أذربيجان من منتجات البـــلاد الدافئة، وهي غير موجودة في بلاد الاتحـــاد السوفياتي ذات المناخ البارد ، مما جعل الروس يعتنون بهذه الأراضي ويحاولون زراعة جميع ما تحتاج إليه بلادهم من محاصيل لا تنتجها ، وهم


داغستان
جورجيا
بحر قزوين
باكو
نهر كورا
أرمينيا
ناخيتشفان
أذربيجان
ايران

يأخذون هذه المزروعات ويوزعونها على جميع أرجاء البلاد الروسية . وأذربيجان غنية بالقوى المحركة والثروة المعدنية ، فالبترول يعتبر أهم مادة في البلاد ، فقد بلغ انتاج هذه المنطقة قبل الحرب العالمية الأولى مقدار ٢٥ مليون طن من مكامن باكو ، وتمتد أنابيب البترول بين باكو على ساحل بحر قزوين ، وباطوم على ساحل البحر الأسود ، ويصدر البترول خاماً ومكرراً . وهناك القوى الكهربائية التي تولد من المياه المتدفقة من الجبال ، وتحوي أراضي أذربيجان من المعادن على الحديد والنحاس والبوكسيت ، وإن كان جل ما تشتهر بـه المنطقة بالامكانيات البترولية الضخمة .

وأهم ما تشتهر به المنطقة من صناعات هي الصناعة البترولية ، وصناعة الحديد الصلب، والاسمنت والأسمدة ، والمنسوجات الصوفية والقطنية، إضافة إلى صناعة السجاد التي تشتهر بها كل تلك الجهات التي تشمل شمال إيران وشرق تركيا وجورجيا وأذربيجان .

تبلغ مساحة أذربيجان ٨٧,٠٠٠ ك م٢ . أي أقل من مساحة الأردن بقليل، ويبلغ عدد سكانها ٤،٢٣٢,٠٠٠ نسمة منهم ٣,٣٠٠,٩٦٠ من المسلمين، أي نسبة المسلمين في أذربيجان ٧٨ ٪ ، وأكثر هؤلاء السكان ينتمون من حيث الجنس إلى

الأكراد الذين يقيمون في سفوح جبال أذربيجان ، ثم التتار الذين يسكنون عند مصب نهر كورا وفي مدينة باكو، وهؤلاء جميعاً من المسلمين ، ثم هناك الأرمن الذين يقطنون سفوح جبال أرمينيا، وأخيراً الروس الذين دخلوا إلى البـلاد ، وقد كانت نسبة المسلمين أكثر من هذا قبل دخول الروس إلى هذه المنطقة .

وقد فتحت أذربيجان في أيام عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – على يد سراقة بن عمرو، وانتشر فيها الاسلام ، وأثناء الهجوم المغولي استولى عليها جنكيز خان . ثم خضعت في القرن الخامس عشر للنفوذ العثماني . وقد مر معنا كيف استطاعت روسيا القيصرية أن تضم إليها بلاد قفقاسيا في القرن التاسع عشر بعد حروب ومناورات، ومعاهدات وتجدد قتال ، وثورات وبطش بأهلها . وعندما قـامت الثورة الشيوعية عام ١٩١٧ أرسل لينين قوات من الجيش الأحمر ، وجعل على رأسها أحد الأرمن وهو شوميان ، وذلك لنشر العقيدة الشيوعية وإحلالها محل العقيدة الاسلامية ، وابتدأت المجازر الرهيبة ، وخاصة في باكو ، حيث قضي على عشرات الآلاف من المسلمين، بينهم الأطفال والنساء والشيوخ، كما دبرت المؤامرات لاغتيال الزعماء المسلمين الذين لم يساوموا على عقيدتهم

ولم يقبلوا عنها بديلاً ، كما صعب عليهم أن يروا الشعب تحارب عقيدته وتراق دماؤه أمام أعينهم ، فوقفوا في وجه الطغاة الدخلاء ، ولكن المؤامرات قد نجحت وذهب مئات الزعماء ضحايا وشهداء في سبيل الله ، واستقر الحكم للدخلاء ، ومن هؤلاء الشهداء رسول زاده محمد أمين ، وعلي ميردان ، وفاتح علي خان حسن بك ، ويوسف بيلي نسيب بك . وبعد ثلاث سنوات من بداية المجازر أي في عام ١٩٢٠ ألحقت أذربيجان بالاتحاد السوفياتي كجمهورية اتحادية سوفياتية اشتراكية عبر القفقاس ، ولكنها في عام ١٩٣٦ أصبحت جمهورية خاصة .

وهناك مجلس إسلامي شكلي لمناطق عبر القفقاس ، للنظر في القضايا الدينية للمسلمين في أذربيجان وأرمينيا وجورجيا ، ومركز هذا المجلس في مدينة باكو ، والواقع أن هذا المجلس ليس له أي عمل ، وإنما هو شكلي تماماً ويرأسه اليوم حكيم زاد شيخ معصوم ، وأهم عمل لهذا المجلس إظهاره أثناء الزيارات الاسلامية بالمظهر الاسلامي .

والشيء الذي يهتم له السكان ويحلمون به ، ويترنمون به في أفئدتهم دون أن يصل إلى ألسنتهم ولا يستطيعون أن يعبروا عنه إلا في ضمائرهم هو اليوم الذي يأملون أن يقولوا فيه كلمة (حق تقرير المصير) .

وأهم مدينة في أذربيجان هي مدينة باكو وتشتهر كما ذكرنا بالبترول وهي عاصمة جمهورية أذربيجان .

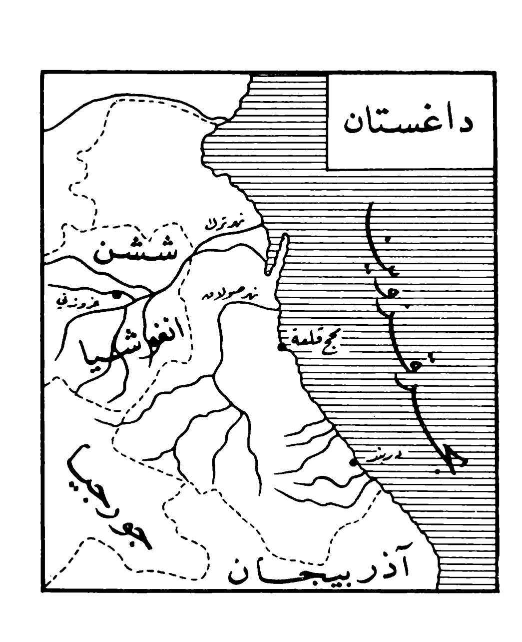
قره باخ :

وفي جمهورية أذربيجان مقاطعة ذات حكم ذاتي هي مقاطعة قره باخ ، وتقع في سفوح جبال أرمينيا ، وهي منطقة جبلية بالدرجة الأولى .

دَاغِسْتَان

هي جمهورية سوفياتيـة ذات حكم ذاتي ، تبلغ مساحتها ٥٠,٣٠٠ كم٢ . أي أكبر من نصف مساحة الأردن بقليل ويقطنها ما يقارب ١,٢٥٠,٠٠٠ نسمة ، وتقع بين جبال القفقاس وبحر قزوين، وتشمل الجبال ثلاثة أرباع أراضيها، فهي إذن منطقة جبلية . وإن كلمة داغ في اللغة التركية تدل على الجبل ، وداغستان سكان الجبل ، وتنحدر الأنهار من الجبال نحو بحر قزوين ، ولا تقطع إلا مسافة قصيرة حتى تصب في البحر ، لذلك فهي شديدة الانحدار ، وأطول هذه الأنهار نهر ترك الذي ترفده أنهار كثيرة ويمر في غروزبي مركز بلاد الشاشان . ويشكل الحدود بين الداغستان والشاشان ، ثم نهر هولاق الذي يصب شمال مدينة محج قلعة ، ولكن الأنهار تصبح قصيرة في الجزء الجنوبي من البلاد .

والبلاد ذات مناظر جميلة في جبالها التي تشرف على البحر،


داغستان
نهر ترك
ششن
غروزني
انغوشيا
محج قلعة
دربند
جورجيا
آذربيجان

وفي أوديتها السحيقة التي تدل على الرهبة بسبب شدة انحدار المياه الجارية ، ولا تترك الجبال بينها وبين الساحل إلا سهلاً ضيقاً . ويتسع بالاتجاه شمالاً ، ويعرض اعتباراً من محاذاة مدينة محج قلعـة ، ولكنه ينفتح عند مصب نهر صولاق . وتصبح البلاد كلها سهلية ابتداءً من مصب نهر ترك .

وداغستان بلاد زراعية بالدرجة الأولى . فهي تنتج القمح والذرة والبطاطا والخضروات والكرمة . وتزداد الكرمة في زراعتها بشكل يلفت الانتباه . كما أن الماشية ترعى في سفوح الجبال . وأشهر مواشيها الأغنام .

ويمكن أن نقول أن البترول يعتبر اليوم من مصادر الثروة الكبيرة ، ويستخرج من مكامن تحت المياه في بحر قزوين على بعد ١٠ كم من الشاطىء ، ثم هنـــاك الغازات الطبيعية . ومن الصناعات الموجودة في داغستان معمل للزجاج يطلق عليه اسم (أضواء داغستان) وهناك أحواض لإصلاح السفن ومعامل لتعبئة الأسماك واللحوم . كما أن البلاد تشتهر بصناعة السجاد وخاصة مدينة دربند . وتوجد محطة كهربائية في جرجبيل ومحطة أخرى في مدينة تشيريورت على الضفة اليسرى لنهر صولاق .

وسكان البلاد كلهم من المسلمين على اختلاف أجناسهم ، إذا استثنينا الروس الذين دخلوا إلى البلاد . وقد دخل الاسلام

إلى هذه المنطقة منذ فترة الفتح أيام الراشدين على يد عبد الرحمن بن ربيعة ، وقد ساعد الداغستان المسلمين في فتوحاتهم قبل أن يسلموا . ووضعت عنهم مقابل ذلك جزية الحماية . وقد كان القوموق الذين يسكنون عند مصب نهر ترك أول من دخل الاسلام . وبذلوا الكثير في سبيل نشره . وقد تأسست في بلادهم إمارة طارقي الشامية ، وكان مركز الإمارة مدينة طارقي التي يطلق عليها اليوم اسم (بتروفسك) كقاعدة عامة في إزالة كل ما يمت إلى الاسلام وتاريخه بصلة ، ثم تبع القوموق بقية الداغستان في الاسلام .

كما احتل جنكيز خان بلادهم . ثم خضعوا للنفوذ العثماني في القرن الخامس عشر ، وعندما اخذت روسيا حماية بلاد الكرج عام ١٧٨٣ أزعجت هذه الحماية الداغستان فنزلوا لقتال الكرج والروس بقيادة عمر خان . وقد أجبروا الروس ترك بلاد الكرج . ولكن الروس عادوا إلى بلاد الكرج عام ١٨٠٠ فعاد الداغستان بزعامة عمر خان ولكنهم فشلوا في هذه المرة . وفي عام ١٨٢٩ قامت في بلادهم حكومه قوية على رأسها مشايخ الطرق ، وقاموا بالفتوحات ، وأخيراً انهزم آخرهم وهو الشيخ شامل أمام الروس وأسر عام ١٨٦٣ ، ودخل الروس بلاد الداغستان وابتدأت المجازر ، مما جعل الداغستان يتركون بلادهم مهاجرين إلى بلاد العرب ، حيث

يعتقدون أنها بلاد النور حيث شع منها الاسلام .

وقد قامت ثورات في بلاد داغستان أشهرها ثورة عام ١٩٠٥ م .

– والداغستان مجموعة من القبائل أشهرها القوموق والآندي . ويحاول الشيوعيون اليوم نشر الفساد لإبعاد الناس عن التفكير في الدين . فهم يشجعون الرقص وإقامة الحفلات الكثيرة وتأليف الفرق الموسيقية الراقصة وإرسال أعضائها في زيارات للدول الأجنبية وإقامة الحفلات .

– ويختلف الداغستان عن الشركس بلغتهم وثقافتهم ، وان كانوا يتشابهون من حيث العادات والتقاليد بسبب الجوار . ويطلق عليهم خطأ في بلادنا اسم (الشركس) .

ومحج قلعة عاصمة البلاد ، وتعرف اليوم باسم (ماخا تشكالا) وفيها محطة للقوى الحرورية ، وتعتبر ميناء هاماً على بحر قزوين ، ودربند مدينة تقع في جنوب البلاد على ساحل البحر أيضاً . وتعتبر ذات موقع مهم حيث تشرف على الممر الطبيعي بين الشمال والجنوب . فتمر منه الجيوش الفاتحة المنطلقة نحو أوروبا أو الداخلة إلى آسيا . وقد أطلق العرب عليها أثناء فتوحهم اسم باب الأبواب .

- ٦ -

إن سكان الجبال وأهالي السهوب لا يخضعون بشكل عام لفاتح يمس كيانهم، ولا يدينون لمسيطر إدانة تغير في وضعهم، كما لا يؤثر فيهم الفاتحون بحضارتهم إلا قليلاً . ولا يتأثرون بثقافة حكامهم إلا تأثراً ضئيلاً . ولا يشذ سكان القفقاس عن هذين النوعين . فهم إما أهل جبل في الوسط أو قاطنو سهب في الشمال ، لذلك وجدنا تأثير الاسلام ضعيفاً في هـذه المناطق وانتشاره بطيئاً رغم أنه طرق شغاف البداة القاسية فانفتحت له ، واستجابت لداعي الله وعملت ضمن نطـــاق الدعوة ، وإذا بها تنقلب مثالاً للرقة والرحمة .

ويمكن أن نميز ثلاث منـــاطق في قفقاسيا بالنسبة إلى الاسلام وأثره :

١ – أذربيجان وداغستان : لم تنتشر المسيحية في هذين الاقليمين مثل الاسلام ، وإنما كانت الوثنيـــة هي السائدة ،

فجاء الاسلام منقذاً ، فغير المفاهيم وألان القلوب ، فتقبلته النفوس . وبدأ السكان يدخلون في دين الله أفواجاً . وساعد ذلك على استقرار الحكم الاسلامي . فقد استمر حكم هذين الجزأين بيد المسلمين منذ الفتح الراشدي حتى الاستعمار الروسي -أللهمّ إلا في بعض الفترات القصيرة التي كان يتخطى فيها الجيران الحدود ويحكمون بعض الأجزاء - وقد كان من سكان هذين الجزأين دعاة ومبشرون للاسلام في الأقوام المجاورة لهم في الوطن والقبائل القريبة في السكن ، دعاة سجلهم التاريخ في أنصع صفحاته . وقد مرت معنا دراسة هاتين المنطقتين فيما سبق .

٢ - أرمينيا وجورجيا : وقد انتشرت المسيحية فيهما قبل وصول الاسلام إليهما حتى عمت أرجاءهما ، لذلك اعتبر سكانهما المسلمين دخلاء فقاوموا دعوتهم ولاغراض سياسية حيث كانت الدولة البيزنطية من وراء ذلك تدفع هؤلاء السكان لمقاومة الدعوة وتحرضهم على قتال المسلمين . مما جعل الحكم الاسلامي مزعزعاً ، لم يستقر فيهما تماماً، ولم تتح الفرصة ليتمكن المسلمون من تبيان حقيقة دينهم وإظهار صلاحيته ، وأنه لا دين غيره ولا حكم سواه ، ولو طبق لما قُبل عنه بديل ، وما حكمت به جماعة إلا أعزها الله فسادت . وما

مقاومته خلال العصور إلا للجهل به ، والانسان عدو ما يجهل .

فلم يعتنق الاسلام إلا نسبة ضئيلة لم تتمكن من الدعوة لدينها بسبب ما لاقت من اضطهاد . فبعد أن دخل العرب المسلمون أراضي أرمينيا وجورجيا أيام الخليفة عمر بن الخطاب لم يستقروا فيها طويلاً حيث عاد الأرمن لتأسيس حكومة لهم بعد وفاة معاوية بن أبي سفيان – رضي الله عنه – عام ٦١ هـ ، ٦٨٠ م . ولكن هذه الحكومة لم تدم طويلاً حيث عاد المسلمون يشرفون على الحكم أيام عمر بن عبد العزيز ٩٩ هـ – ٧١٧ م . واستمر اشرافهم هذا حتى دالت دولة الأمويين وجاءت الدولة العباسية خليفة الأمويين ، فاستمرت في حكمها للمنطقة حتى وهن الإيمان واستكانت النفوس . وخلفهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، فضعفت الدولة ، وبدأت الولايات تستقل عن جسم الخلافة العباسية في بغداد ، فاستغل المسيحيون هذا الضعف وانقضوا على الحكم عام ٣١٨هـ – ٩٣٠ م . يستلمونه ، كما دان لهم جزء أذربيجان ، واستقر حكمهم أكثر من قرن وربع حتى جاء السلاجقة ، فخضعت لهم المنطقة وذلك عام ٤٥٧ هـ – ١٠٨٠ م ، ما عدا بلاد داغستان التي كان يحكمها زعماء من الجبل ، استولوا عليها من

بني ساج الذين حكموها من ٢٥٨ - ٣١٨ هـ - ٨٩٨ - ٩٣٠ م واستمر حكم السلاجقة حتى ٥٣١ هـ - ١١٣٦ م حيث حكم الكرج جورجيا ، بينما احتل أمراء أذربيجـان أرمينيا . ثم جاء المغول وسيطروا على البلاد ، وبقيت دولة الكرج بين مد وجزر من حيث اتساع رقعتها وضمور أرضها حتى احتلهـــا الروس أخيراً، وبهذا نجد أن حكم المسلمين لم يستقر في جورجيا وأرمينيا ، وإنما كان المسيحيون هم الذين يحكمون البلاد فعلياً حتى أثناء سيطرة - من سموا بالمسلمين - كانت الحكومة المحلية مسيحية . ولهذا اضطهد الذين اعتنقوا الاسلام .

وقد احتل الروس جورجيا بعد أن وضع ملكها شعبه تحت حماية التاج الروسي وذلك في نهـاية القرن الثامن عشر ، وحتى تلك اللحظة كان شعور السكان الجياش قـد ساعد على التمسك بالعقيدة المسيحية حية في نفوسهم طالما اعتقدوا أن الغزاة الغرباء من المسلمين . أما في الوقت الذي أصبحت فيه القوة التي تسعى إلى سلب استقلالهم تدين بالمسيحية فقد ساعد ذلك على انتشار الاسلام من قبـل بعض السكان . ولولا الظلم والاضطهاد ونص القانون على اعتبار اعتناق أي دين يخـالف الكنيسة الأرثوذكسية في روسيا أمراً محرمـــاً لعم الاسلام وساد .

أرمينيا

تقع أرمينيا في الجزء الجنوبي من قفقاسيا على حدود تركيا وإيران كما تقع جمهورية ناهنتيشيفيان في جنوبهـــا ، أما من الشرق فتقع جمهورية أذربيجان ومن الشمال جمهورية جورجيا . وأرمينيا منطقة جبلية . وأكثر مياههـــا تنحدر نحو نهر أراكس الذي يشكل الحدود بينها من جهة وبين تركيا وإيران من جهة ثانية ، وفي وسطها تقع بحيرة سيفان على ارتفـاع ١٩٢٧ م عن سطح البحر . وتبلغ مساحة أرمينيا ٣٠ ألف كلم٢ أي ما يقارب ٣ أمثال مساحة لبنان . ويزيد سكانهـا عن مليوني نسمة وفيهم ٣٤٠٠٠٠ مسلم أي بنسبة قدرهـــا ١٢ ٪ .

جورجيا

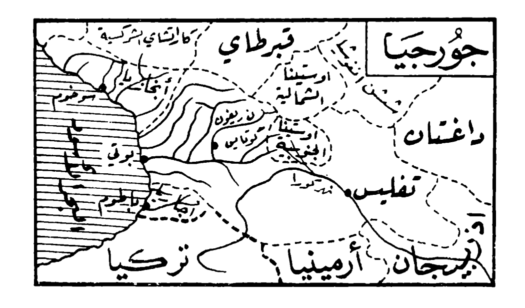
تشغل جورجيا مساحة قدرها ٧٠ ألف كلم٢ ، وتشمل السفوح الجنوبية الغربية لجبال القفقاس . فيضفي عليها ذلك الموقع اعتدالاً في المناخ . إذ تقع ضمن منـــاخ البحر الأبيض المتوسط. كما أن الجبال العالية تحول دون وصول الرياح الشمالية الشرقية الباردة وأن ارتفاعها عن سطح البحر يجعلهـا مصيفاً رائعاً مليئاً بالمناظر الخلابة ، فالجبـــال المكسوة بالأشجار والأودية المزروعـة بمختلف الأنواع بحيث لا ترى إلا الخضرة الفاتنة والمناظر الرائعة والسماء الصافية والجداول الرقراقـة . والمنطقة هادئة والطبيعة ساكنة ولا يبدد سكونها إلا أصوات الطيور أو خرير المياه . أو حفيف الشجر . كما أن تعرضهـا لأشعة الشمس يجعلها ذات أهمية من حيث بناء دور النقاهـة وقضاء فصل الشتاء البارد في البلاد السوفياتية ، ولذلك أقيمت على سفوحها أكثر دور النقاهة في الاتحاد السوفياتي ، وأشهر

ما شيد منها ما هو في مدينة سخالتوبو وأمطـارها الشتوية غزيرة . لذلك كانت الأنهار كثيرة وشديدة الانحدار مما يجعلها عميقة ويمكن الاستفادة منها بتوليد طاقة كهربائية هـائلة ، والأنهار إما تنساب نحو نهر كورا في القسم الشرقي، أو نحو البحر في القسم الغربي . وأطول الأنهار الغربية وأكثرها روافداً نهر ريفون الذي يصب عند مدينة بوتي .

ومناخ جورجيا يلائم زراعة الحبوب وخاصـة الذرة والكرمة والحمضيات والشوندر السكري وهـذه مزروعات تجدها في أكثر أرجاء البلاد ، كما تنتشر شجرة التوت لتربى عليها دودة الحرير . وقد بدأت جورجيا بانتاج الشاي الذي يزرع على السفوح فتنتج ٩٧ ٪ من الشاي في الاتحاد السوفياتي وتزرع ٥٤,٠٠٠ هكتار سنوياً من هذا النوع تعطي ١٥٧,٠٠٠ طن ، كما تزرع التبغ وهو من الأصناف الجيـدة والأنواع المشهورة .

وتنتشر المراعي الواسعة فتربى عليها قطعان الماشية وخاصة الأغنام . وتأتي جورجيا في طليعـة الدول المنتجة للمنغنيز . كما تحتوي أراضيها على التوتياء والفحم والتنغستين .

وأهم الصناعات فيها الحديد والصلب وصناعـة عربات السكك الحديدية والأدوات الكهربائية . ثم هناك صناعـة الاسمنت والأسلحة وحلج القطن ، كما عرفت صناعة السجاد فيها منذ القديم .



يسكن جورجيا اليوم ٤،٣٤٢،٠٠٠ نسمة ، ويبلغ عدد المسلمين ٨٢٥،٠٠٠ نسمة ، فنسبة المسلمين تبلغ ١٩٪ تقريباً .

أخذت روسيا على عاتقها حماية بلاد الكرج ١٧٨٣ م . فنزل الداغستان الذين هالهم أن يروا الروس يحتلون المناطق المتاخمة لهم . فنزلوا لحربهم فاضطر الروس للخروج من بلاد الكرج لانشغالهم في معارك ثانية . ولكنهم عادوا إليها بعد فترة . وبعد أن توفيت امبراطورة روسيا كاترين ١٧٩٦ م خلفها القيصر بول . فخالف أسلافه وسحب القوات من بلاد الكرج ولكنه عدل عن رأيه وضمت كرجستان إلى روسيا . مما أجبر الداغستان أن يحاربوا الروس عندما وجدوا أنفسهم محصورين بين نارين . ولكنهم فشلوا في هذه الحرب التي كان

يقودهم فيها عمر خان فما كان من روسيا إلا أن ابتلعت بلاد الكرج واعتبرتها جزءاً من بلادها وذلك في عام ١٨٠١ م . ثم ضمت إليها حكومة امارتي التي يحكمها الأنجاز (الأباظة). وذلك عام ١٨١٠ م كما أنها ضمت إليها حكومة غوريا في منطقة باطوم . وبنتيجة مؤتمر برلين ١٨٧٨ م حصلت روسيا على مدينة باطوم بشكل نهائي . واعترفت بذلك الدولة العثمانية .

وتضم جمهورية جورجيا اليوم الأقسام التالية :

جورجيا :

جمهورية عاصمتها مدينة تفليس التي تقع على نهر كورا وهي مدينة تاريخية قديمة . ويعرف سكان جورجيا باسم الكرج ويقارب عددهم المليونين .

انجازيا :

جمهورية ، تقع شمال غربي جورجيا ، على ساحل البحر الأسود وتقع شمالها بلاد الأديغا وكاراتشاي الشركسية ، وعاصمتها مدينة سوخوم . والأنجاز من العناصر الشركسية ولكنهم انفصلوا عنهم بجبال القفقاس ويقطنون سواحل البحر

الأسود والمرتفعات من الجبال . فالقسم الذي يقطن سواحل البحر يعرفون باسم الأنجاز وأكثرهم من المسيحيين ، وعندما صدر مرسوم بالتسامح الديني في بلاد روسيا عـــام ١٩٠٥ دخلت جموع كبيرة منهم في الإسلام بعد أن ظلوا طويلاً يدينون بالمسيحية اسماً ، ولهـذا القسم صلة بالكرج أكثر من صلتهم بباقي الشراكسة . حيث الجبال التي تفصلهم شاهقة القمم وعرة المسالك . أما القسم الثاني الذين يقطنون الجبال وسفوحها الشمالية فبقيت صلتهم مع الشراكسة قائمة. ويعرفون باسم الأبازين ، وهم من المسيحيين وأكثر صلتهم بالقبرطاي .

وبلاد الأنجاز سهلية تنحدر مياهها من الجبال نحـو البحر الأسود . وتكون الأنهار بشكل عام قصيرة . وقد قضت روسيا على استقلال هذه البلاد عام ١٨١٠ م .

آجاريا :

وتقع على ساحل البحر الأسود أيضاً بين جورجيا وتركيا. عاصمتها مدينة باطوم التي تعتبر المرفأ الأول في جورجيا . وعن طريقها تتصل بالخارج وتصل إليها أنابيب البترول من مدينة باكو في أذربيجان .

وقد قضت روسيا على استقلال المنطقة في بداية القرن التاسع عشر ، أما المدينة فقد ضمت إليها بنتيجة مؤتمر برلين عام ١٨٧٨ م .

والمنطقة سهلية وأنهارها قصيرة تتجه نحو البحر الأسود ، وأطولها الذي يصب جنوب مدينة باطوم .

أوسِتينيا الجنوبيَّة

وهي مقاطعة ذات حكم ذاتي . والأستين قبيلة من القبائل الشركسية تقطن القسم الأوسط من جبال القفقاس في مرتفعاته المنيعة وقممه الشاهقة المعروفة (قازبك) و (البروز) والاسم القومي لهذه القبيلة (الإيرون) أما الاستين فهو الاسم التاريخي لهم . أما بين الشراكسة فيعرفون باسم (القوشحه) أو (القوصحة) ، والقسم الجنوبي مقاطعة ذات حكم ذاتي يطلق عليهم الكرج اسم (توالتا) وهم يتبعون جورجيا . أما القسم الشمالي فهو عبارة عن جمهورية ذات حكم ذاتي وسيأتي بحثها ضمن المجموعة الشركسية فيما بعد .

المجموعة الشركسية ويضاف إليها جمهورية شاشان انغوشيا:
وتختلف عما بحثناه سابقاً (داغستان وأذربيجان وجورجيا وأرمينيا) في ناحيتين :

أ – في أنها لا تشكل (حسب التقسيمات السوفياتية المعقدة) جمهوريات مستقلة خاصة بسكانها وإنما هي جمهوريات ذات حكم ذاتي أو مقاطعات ذات حكم ذاتي تتبع لأقاليم واسعة .

ب – بقي سكان هذه المناطق على الوثنية حتى فترة قريبة لا تزيد عن القرنين ، رغم أنها خضعت اسمياً للدولة العثمانية . وقد كان التبشير في مرحلته الأولى ضعيفاً لعدم استقرار الوضع في البلاد ومداهمة المغول . ثم وضعت المنطقة تحت نفوذ العثمانيين، ولم يكن اهتمام هؤلاء في بداية الأمر جدياً بالنسبة لنشر الدين . فبقي العمل للاسلام محدوداً حتى نهاية

القرن الثامن عشر حيث بدأ انتشار الاسلام يتوسع في تلك الربوع عن طريق المبشرين ، حيث ظهر في داغستان شخص يدعى درويش منصور ، حاول أن يجمع شمل قبائل القوقاز المختلفة ويوحد كلمتهم لمناهضة الروس . ولم يجد أفضل من أن يبث دعوته لنشر الاسلام ، ويستثيرهم للجهاد في سبيل الله . وما انتصرت أمة على عدوها إلا إذا حاربته معتمـــدة على عقيدتها التي تنبع من ضميرها ومقدساتها. وقد كانت الفتوحات العربية الاسلامية الواسعة مستوحاة من الجهاد في سبيل نشر العقيدة ، ولن يكون اليوم لنا نصر إلا بذلك . وقد أفلح السيد درويش منصور في تحويل أمراء بوبخستان وداغستان وأشرافها إلى الدين وقد ظلوا على ولائهم للاسلام منـــذ ذلك الحين . وكذلك دخل في دعوته كثير من الشراكسة ، ولكنه أُسر عام ١٧٩١ في الحرب التي دارت رحاها بين الروس الذين أخذوا على عاتقهم حماية جورجيا من جهة وبين أمراء داغستان بقيادة عمر خان من جهة ثانية . وكانت النتيجـــة أن دخلت جورجيا في حوزة الروس عام ١٨٠٠ ولكن إن أسر درويش منصور فإن دعوته لم تمت ، وإنما استمرت بفضل صدقهـا وحماس أتباعها فما ماتت دعوة من ورائها مخلصون ولا انتهى عمل من خلفه مريدون تحركهم العقيدة التي تنبع من القلب فإن ينابيع القلب لا تنضب إن جفت بقيـــة الينابيع . ومن

جهة ثانية فبعد توقيع معاهدة كوتشوك قينارجي ١٧٤٤ م التي اعترفت بموجبها الدولة العثمانية باستقلال شبه جزيرة القرم، وفتحت طريق البحر الأسود للسفن الروسية خافت الدولة العثمانيـــة من سيطرة الروس فأرسلت ضابطاً يدعى فرح علي وذلك عام ١٧٨٢ لتأسيس مركز في أنابا بالقرب من منفذ البحر الأسود. وفكرت بأن يكون هذا المركز بنفس الوقت مجالاً للتبشير بالاسلام بين الشراكسة الذين بقوا حتى هـــذه الفترة على الوثنية إلا أعداداً ضئيلة منهم سبق أن دخلوا في الاسلام.

وفي الواقع لم يكن السيد فرح علي ضابطـــاً عسكرياً بمفهومنا اليوم بل كان ضابطاً حقيقياً يفتح القلوب للايمان قبل أن يفتح المراكز العسكرية. فكان أول عمل قام به أن خطب ابنة أحد الشراكسة وقـــدم إلى أبيها هدايا ثمينة من الأسلحة والخيل وأقام احتفالاً فخماً. وشجع جنوده أن يحتذوا حذوه ووعدهم بدفع كامل نفقات الزواج. وبهذه الطريقة دخلت نساء شركسيات إلى مراكز أنابا. واعتنقن ديانة أزواجهن وقد جذب هؤلاء النساء آباءهن وأخواتهن إلى الإسلام. وبدأت حركة نشيطة لنشر الدين. وقـــد أظهر الشراكسة الذين دخـــلوا في الاسلام استعداداً كبيراً لتعلم القرآن. وقد عكف العلماء على تفقيه هؤلاء في الدين فطلبوا

مدداً من القسطنطينية لتثقيف هذه الجموع الحديثـــة العهد بالاسلام . وقد كان عددهم يزداد يوماً بعد يوم .

وقد توفي السيد فرح علي عام ١٧٨٥ م . ولكن الدعوة استمرت بعده بشكل بطيء حتى سقطت أنابا بأيدي الروس عام ١٨١٢ م لكن الدعوة ثابرت على استمرارها لأن العقيدة لا ترتبط بالأشخاص أو المراكز وإنما بالقلوب المتعلقة بالمفاهيم . وإن بقي عمل الدعوة بطيئاً حتى عام ١٨٢٦ حيث ابتدأت الحروب بين الروس والشراكسة برئاسة الشيخ شامل فازداد الحماس والتهبت النفوس للدخول في الاسلام . بـــل أصبح الانتساب إليه يعتبر مفخرة من المفاخر لمحاربة العدو المغـاير بالعقيدة ، المخالف بالأفكار ،وعندما تغلب الروس عام ١٨٦٤م على مقاومة الشركس هاجر منهم أكثر من نصف مليون إلى البلاد الاسلامية هرباً بدينهم ونجاة بعقيدتهم . فكل شيء يسهل أمام العقيدة، وأصبحت البلاد الشركسية ضمن الأراضي الروسية وكان القانون القيصري يعتبر أعتناق أي دين يخالف الكنيسه الأرثوذكسية في روسيا أمراً محرماً. فتوقف انتشار الاسلام حتى عام ١٩٠٥ حيث صدر مرسوم بالتسامح الديني فدخلت جموع كثيرة إلىالاسلام وخاصة من الانجاز الذين ظلوا طويلاً يدينون بالمسيحية اسماً فقط . ولكن هذا التحول نحو الاسلام جعل رجال الكنيسة يأخذ منهم كل مأخذ فأقاموا جمعية دينية خاصه بتوزيع منشورات مسيحية بينهم أملاً في

مناهضة انتشار الاسلام . ولكن هـــذا لم يقف دون تقدم الاسلام الذي دان به جميع الشراكسة . فأعاد الروس تحريم أي دين غير المسيحية الأرثوذكسية ولكن هذا لم يدم طويلاً حتى قامت الثورة الشيوعية التي لا تؤمن إلا بالمادة وتعتبر جميع الأديان إن هي إلا أفيون للشعوب وخاصة الاسلام الذي يرفض الخضوع لأي قانون غير شرعه . والجهاد سبيله إلى هـــذا ، والإيمان مادته التي تبقي القلوب على حيويتها .

وأهم الجمهوريات في هذه المنطقة :

شَشَن أنغوُشيَا

وتختلف هذه المجموعة عن المجموعة الشركسية في كثير من عاداتها ولغتها ، والزواج لا يتم على طريقة الاختطاف بل على طريقة العقود . حتى أن الششن ليتضايقون من وضعهم ضمن العناصر الشركسية . ولكنهم قريبون جداً من العناصر الداغستانية حتى في اللغة والتقاليـد ، والمهاجرون في بلادنا يوضعون ضمن الداغستان ويدعي الششن أنهم من أصل عربي شأنهم في ذلك شأن كل الشعوب الاسلامية ، تفاخراً وتبركاً ، حتى وضعت شجرات أنساب تصلهم بالعرب ويبلغ عددهم ما يقارب نصف مليون ولكنه حسب الاحصاءات الروسية لايزيد عددهم عن ۳۰۰,۰۰۰ نسمة بينما يصل عددهم حسب أقوالهم إلى ۸۰۰,۰۰۰ شخص .

وللششن جمهورية خاصة ذات حكم ذاتي ورغم أن هـذه العناصر أعتنقت الاسلام حديثاً فإنها متمسكة به ، محافظة

عليه ، إذا قورنت مع المجموعات البشرية المجاورة لهم في السكن وقد لاقى أهلها كل أنواع العذاب في سبيل دينهم ومن أجل عقيدتهم ، فألغيت جمهوريتهم ونفي سكانها إلى مجاهل سيبريا حيث قاسوا هناك العنـاء واليأس والشوق والغربة وأصعب الأعمال وأقساها ومع ذلك فقد استمسكوا بدينهم وتجلدوا ، ورأى الروس منهم أناساً لا يتأثرون لريب الزمان فأعادوهم من منفاهم وأعادوا لهم تشكيل جمهوريتهم وذلـك في عام ١٩٥٧ م .

تقع بلاد الششن في السفوح الشمالية لجبال القفقاس فتتدفق إليها المياه صخابة جرافة من الجبال وتشكل أنهاراً كثيرة تلتقي كلها بنهر ترك الذي يعتبر أهم أنهار قفقاسيا . وتنقلب هــذه المنطقة إلى جنات وارفة ملأى بالمزروعات كثيفة بالأشجار ومع هـذا لا تعتبر بلاد الشش ذات شهرة واسعة



بالزراعة إذا قيست بجانب الكميات البترولية المنبعثة من أراضيها والمنبثقة من حقول غروزني .

وتظهر القرى كبيرة بسبب تفرق المنازل وانتشار البيوت . فكل بيت حوله مزرعة مساحتها ١٠٠٠ م٢ تركت لصاحب البيت ليعمل بها ويستثمرها ، وهي الملكية الوحيدة من الأرض التي يمكن لمن استخلفه الله في الأرض أن يتصرف فيها .

ويكون العمل الزراعي في مزارع جماعية منتشرة بشكل واسع ، يعمل الفرد فيها حسب ما خصص له بشكل آلي ، بحيث لا يمكن أن يشتغل بفكره ، أو يعمل بعقله الذي ميز الله به الانسان عن بقية المخلوقات ، وأكرمه بذلك : « ولقد كرمنا بني آدم ، وحملناهم في البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا [١] » .

ويكون المبيع في محلات عامة ملك للدولة ، يشتري الانسان منها ما عين له ، ويأكل ما خصص له ، بحيث لا يمكن أن يأخذ حسب حاجته ومتطلباتها التي هي ضرورية له ولا حسب رغبات نفسه التي ماتت مع بقاء الروح فيها :

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء

---

(١) الاسراء الآية ٧٠ .

ويختلف التعليم حسب مراحله فالابتدائي يكون باللغة الشيشانية بأحرف سلافية فرضت عليهم فرضاً ، بعد أن أبعدت الأحرف العربية ، وفرضت العقوبات الصارمة على من يكتب أو يتكلم العربيـة ، ولا عيب في ذلك فحسب المثل الشائع – ضرب الحبيب زبيب – والروس أحباؤنا .

أما في المرحلة الثانوية فالتعليم فقط باللغة الروسية واستعمال أية لغة غيرها يعتبر جريمة في نظر القانون ، وهـذا ليس بالاستعمار وإنما رأي أنصار السلام .

زيارة أحد المهاجرين إليها

وقد زار أحد الششن اللاجئون إلى الأردن تلك المنطقة في الصيف المنصرم ، بعد أن حصل على موافقة السلطات الروسية بالدخول إلى البلاد ، وبعد أن أبرز كفالة رسمية من شخص في المكان الذي ينبغي زيارته ، بألا ينقل أخباراً ، ولا يتكلم عن الأحوال ، ولا يبحث في أمور سياسيـة أو اجتماعية أو اقتصادية ، وإنما يرى فقط أقرباءه – وهذه أفضل التسهيلات للزوار ، والدول تفخر عادة بزيارة الأشخـاص إليها ، لينقلوا عنها إلى مجتمعاتهم ما رأوه من حرية وتقـدم وحضارة وتمدين . وقد ذكر أموراً كثيرة يجدر الاهتمام بهـا والتأمل فيها « إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى

السمع وهو شهيد[1] » . ومن أهم هذه الأمور التي ذكرها :

١ – أنه استقبل بشكل منقطع النظير ، حيث كان بانتظاره بضعة آلاف من الأشخاص في المحطة مع أنه شخص عادي ، وبقي ثلاثـــة أسابيع محجوزاً في غرفته لا يمكنه مغادرتها لكثرة الوافدين للتحية بالمئات يوميـــاً ، ولمنعه من التجوال وقد جاء بعضهم من مسافات بعيدة جداً ، حتى قدم بعضهم بالطائرة من مسافة ١٥٠٠ كم ليرى أحد الذين أتوا من بلاد النور من العربية .

٢ – كانوا يحمدون الله كثيراً على أنه أصبح للشخص المرفه منهم أكثر من غيار واحد من الثياب، بعد تطبيق الاشتراكية العلمية بمدة ٥٠ عاماً ، وقد صار بإمكانه أن يغير ثيابـه دون البقاء تحت اللحاف ريثما يجف ما غسله من ثياب ، ويكرهون الانخراط في صفوف الجيش الروسي ، ولكنهم مرغمون على تأدية الخدمة الإلزامية .

٣ – عندهم ميل غريب للاسلام والتفقه فيـه ، ومعرفة أحكامه ما عدا الجيل الجديد الذي نشأ على عقيدة الشيوعية أو أجبر عليهـــا فينفر من الدين نفوراً يتناسب مع عقيدته الجديدة ، والشيء الذي يحز في نفوسهم قلة الأئمة والعلماء وقد

---

(١) ق الآية ٣٧ .

كان السكان هناك يوجهون إليه أسئلة فقهيــة ويفترضون أنه على علم بها ما دام يعرف العربية ويقطن مع أهلها .

ويسكن هناك شخص عاش بعض الوقت في البلاد العربية، فيعتبره السكان ولياً من أولياء الله ويتبركون به ، رغم أن لغته العربية ضعيفة جداً .

٤ – لا يعرفون شيئاً عن العـــالم الخارجي ، ولا عن اللاجئين عن ديارهم ، كما أنهم يمنعون من الذهــاب إلى الحج ، وكل الذي يهتمون به إنما هو عملهم وعملهم فقط راضين بذلك أو مرغمين .

٥ – وقد أفتى لهم الحكام بأن الخمر غير محرمـــة في الاسلام ، وعندما سألهم الضيف عن الخمر وكيف يتعاطونه مع أنهم يسألون عن الدين ؟ فأجابوا بأنه غير محرم ما داموا لا يتعاطونه عندما يصلون .

٦ – يعتبرون البلاد العربية بلاد النور ، ما دام الاسلام منها نشأ ومنها خرج ، ويظنون بأهلهـــا أحسن الظنون ، ويعتبرونهم المثل الأعلى في الكمال والجمـــال والعلم والخلق والفضيلة ، أو أنهم المتدينون فعلاً ، كما يعتقدون أن الاسلام في البلاد العربية هو الحاكم فيها لا المحكوم عليه ، ولهذا كانوا يجمعون أعقاب السجاير التي يلقيهـــا ضيفهم على الأرض ، ويضعونها في أماكن خاصة ، ويغضبون من إلقائها على التراب

حيث يمكن أن تداس بالأرجل فكيف ذلك ؟ وقد جاءت من بلاد النور . وقد طلب منه شيخ كبير يزيد على الثمانين أن يؤمه في ركعتين ، وقال : إن أمله الأول والأخير قبل أن يوارى قبره أن يقتدي ولو بركعتين بإنسان قادم من البلاد العربية .

هذه هي أيها العرب نظرة الشعوب الاسلامية إلينا ، فما هي نظرتنا إليهم ؟ وما هي السبل التي ننهجهـا للتعرف على أوضاعهم ومساعدتهم على حل مشاكلهم ؟ ونحن أمـة أعزّنا الله بالاسلام ومن ابتغى العزة بغيره أذله الله .

أوستينيا الشمالية

الأوستين من العناصر الشركسية ؛ وقـــد اكتسبوا هذا الاسم عبر التاريخ ، ويقطنون أعلى مرتفعات جبال القوقاز وأمنعها واحصنها ، ممـــا أبقاهم على عزلتهم ، لا تصل إليهم المؤثرات الخارجية ولا يختلطون بغيرهم فقد بقي قسم منهم على الديانة المسيحية في المنـــاطق القريبة من الكرج ، واعتنق الاسلام سكان المناطق المتاخمة للششن والقبرطاي ، وقسمت الادارة الروسية بلادهم إلى قسمين . كان الأول عبارة عن مقاطعة ذات حكم ذاتي تتبع جمهورية جورجيا ، وهو القسم الجنوبي ، واطلق على سكانه اسم توالتـــا زيادة في التفرقة والانقسام ، وأعطي الثاني وهو الشمالي اسم جمهورية ذات حكم ذاتي . وقد أضفى عليهم موقعهم شجاعة وقوة جعلتهم جنوداً أشداء بالفطرة يرغبون في القتـــال بأي مكان وجدوا فيه ولصالح أية دعوة تستنجد بهم ، مما شجعهم على الانخراط في

صفوف الجيش الروسي ، إضافة إلى بلادهم الجرداء تقريباً التي لا تكفيهم مورداً ، وقد أصبح عـــدد من الضباط منهم في الجيش الروسي بخلاف الششن الذين يكرهون الخدمة العسكرية في روسيا ويذهبون إلى الخدمة الإلزامية بكل تململ .

ومن أوستينا تنبع الروافد الكثيرة لنهر ترك وتعتبر حدودها الجنوبية التي تفصلها عن أوستينا الجنوبية هي ذرى جبال القفقاس .

كباردْيا

ويطلق على السكان اسم قبرطاي وهم من العناصر الشركسية وأعطيت بلادهم اسم جمهورية ذات حكم ذاتي . ويسكنون في غرب القوشحه في المناطق المرتفعة من جبال القوقاز أيضاً ويشتهرون في تربية الخيل رغم أن هذه المهنة تشتهر بها كافة المناطق القفقاسية بشكل عام . وجميع القبرطاي يعتنقون الاسلام ومتمسكون به رغم أنهم يحافظون على عاداتهم وتقاليدهم ، ومن الصعب تغيير تلك العادات وقد جرت محاولة على يد المصلح المعروف إسلام بك ولكنه عجز، وخاصة أن القبرطاي مبالغون في عصبيتهم ويتفاخرون بها أشد المفاخرة وينظرون إلى جميع العناصر المجاورة لهم من شركسية وغيرها نظرة فيها شيء من الاحتقار .

ومن جمهورية كباردیا تنبع الروافد الكثيرة لنهر ترك ، وتعتبر حدودها الجنوبية التي تفصلها عن جورجيا هي ذرى جبال القفقاس .

كراتشاي الشركسية

وهي مقاطعة ذات حكم ذاتي تتبع إقليماً واسعاً يعرف باسم مركزه ستافرو بول ورغم أنها تحمل اسماً شركسياً ، إلا أن سكانها ليسوا من العناصر الشركسية وإنما هم من المغول وتدل على ذلك صفاتهم كما أنهم يتكلمون لغة خاصة بهم أقرب إلى اللغة التركية تؤكد أيضاً أصلهم المغولي ، وجميع السكان يدينون بالاسلام وهي تجاور الأنجـــاز من الجنوب والحدود بينهما إنما هي ذرى القفقاس وخط توزيع المياه، حيث تنحدر المياه في الجنوب نحو أنهار أنجازيا وتنحدر في الشمال نحو نهر كوبان ، أما حدودها مع الأديغة والقبرطاي فهي تساير خط انتشار المجموعات البشرية ، وأما من ناحيـــة الشمال فصلتها بإقليم ستافروبول .

بلاد الأديغة

وهي مقاطعة ذات حكم ذاتي ، وتتبع إقليماً يعرف باسم مركزه مدينة كراسنودار التي تقع على الجهة اليمنى من نهر كوبان الأدنى ،وتشرف هذه البلاد على البحر الأسود من ناحية الغرب . وتجري في أراضي هذه المقاطعة مياه نهر كوبان وروافده وتميل الأراضي بشكل عام نحو الشمال الغربي .

يتألف سكان هــــذه البلاد من مجموعة قبائل ، أشهرها الإيزاخ التي تقيم في السفوح الشمالية لجبال القوقاز ، ومن هذه القبائل أشهر العائــــلات من اللاجئين في بلادنا وهي اسرة دوغوظ ثم هناك قبائل البزادوغ وتقيم في الشمال على ضفة نهر كوبان اليسري ، ثم هناك قبائل الشابسيغ وتقيم شرق قبائل

البزادوغ ، وهناك قبائل الحاتوقواي ، وجميع السكان يدينون بالاسلام،وأهم مدن المنطقة مايكوب المدينة الشهيرة في صناعتها وثروتها البترولية ، ومن أهم المرافىء مدينة سوخي ومدينـة أنابا .



فهرس

المقدمـــة ٥
طبيعة بلاد القفقاس ٩
سير الفتوحات الاسلامية ١١
الغزو المغولي ١٨
الاستعمار الروسي ٢٠
الأجناس في قفقاسيا ٢٧
الأديان في قفقاسيا ٢٩
الجراكسة : ٢٩
١ ـ الانجاز ٣٠
٢ ـ الابزاخ ٣٠
٣ ـ القوشحة ٣١
٤ ـ القبرطاي ٣١
٥ ـ البزادوغ ٣١
٦ ـ الشابسيغ ٣١
الداغستان : ٣١
١ ـ الداغستان ٣٢
٢ ـ الشاشان ٣٢
٣ ـ القوموق ٣٢
٤ ـ الآندي ٣٢
العادات الشركسية والتقاليد ٣٣
الحياة الاقتصادية في قفقاسيا ٤١
التقسيمات : ٤٦
الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية ٤٦
الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية ذات الحكم الذاتي ٤٦
المقاطعات ذات الحكم الذاتي ٤٧

أذربيجان ٥٠

قره باخ ٥٦

داغستان ٥٧

ارمينيا ٦٦

جورجيا ٦٧

جورجيا ٧٠

انجازيا ٧٠

آجاريا ٧١

اوستينيا الجنوبية ٧٣

ششن انغوشيا ٧٩

زيارة أحد المهاجرين إليها ٨٢

اوستينيا الشمالية ٨٦

كبارديا بلكاريا ٨٨

كاراتشاي التركية ٨٩

بلاد الأديغة ٩٠